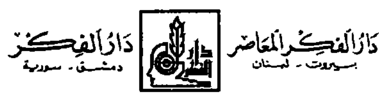
سلسلة

غزوات الرسول الأعظم

صلى الله عليه وسلم

الدكتور شوقي أبو خليل







الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٤
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٠٦٢٧,٠٣١
الرقم الدولي للسلسة: ISBN: 1-57547-102-7
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-57547-106-X
الرقم الموضوعي: ٢٧٠
الموضوع: السيرة النبوية
السلسلة: غزوات الرسول الأعظم
العنوان: صلح الحديبية
التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ١٥٢ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠ سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق
برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية
برقياً: فكر
فاكس ٢٢٣٩٧١٦
هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
E-mail: info @fikr.com

إعادة
١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م
ط١: ١٩٨٣م


بسم الله الرحمن الرحيم


صلح الحديبية
الفتح المبين

صلح الحديبية : الفتح المبين / شوقي أبو خليل. ـ دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٦. ـ ١٥٢ ص ؛ ٢٠ سم.
١ ـ ٩٥٦,٠٢ خ ل ي غ ٢ ـ ٢١٩,٥ خ ل ي ص
٣ ـ العنوان ٤ ـ أبو خليل
مكتبة الأسد
ع ـ ٧٠٧ / ٦ / ١٩٩٦

مَا بَدَأَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حرباً قطّ ،
إذ كان حريصاً ألا يُراق دم إنساني
فهو نبيُّ المرحمة .
ولكن إذا كانت لامحالة واقعة كان رَجُلَها
الأول . . فهو نبيُّ الملحمة .
لقد كان عظيماً في رحمته بالناس ،
عظيماً في استعداده للحرب ، عظيماً في
خططه ، عظيماً في تحقيق النّصر واستثماره .



تصدير

☆ في صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ ، وُضُوحُ الرؤيا في الابتداء ، حقّقَ الهدفَ في الانتهاء .

بسم الله ، والصلاة والسَّلام على رسول الله ، وبعد ..

جمعت قريش في غزوة الأحزاب جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل ، ولكنها فشلت في تحقيق حتى جزء يسير مما أرادته ، فضعفت ضعفاً ظاهراً بعد انسحابها وقد أُسقط بيدها ، وأصابتها ضائقة اقتصادية لأن تجارتها باتت متوقِّفة مع الشام ، كما بدأت بعض القبائل تنظر إلى رسول الله ﷺ على أنَّه قوة ناشئة محترمة ، فتقرب بعضها إلى المسلمين بعد هزائم قريش المتكرِّرة .

لقد تحوَّل الموقف في جزيرة العرب ـ بعد غزوة الأحزاب ـ لصالح رسول الله ﷺ ، فامتلك المبادأة ، وصار سيد الموقف .

وفي جو الحروب ، حيث يشهر السلاح ، وتسقط الضحايا ، ويؤخذ الأسرى .. لا تبادل للرأي ، ولا عرض للأفكار ، ولا لقاء هادئ للتحاور ، فلا تنتشر المبادئ ، وهذا أمر طبيعي مردُّه تعصُّب النفوس ، وتنافر القلوب ، مع إثارة الضغائن والأحقاد .

أمام هذا الواقع ، سعى رسول الله ﷺ إلى تهيئة الجو المناسب لنشر الإسلام ، فمدَّ يده إلى قريش مظهراً منتهى الحنكة السياسية ، والنظر البعيد ، مع منتهى المرونة والتسامح .

وكسب ﷺ الرأي العام ، عندما خرج باتجاه مكة ، وقد ساق الهَدْي ليثبت للعرب كافَّة تعظيمَه للبيت الحرام ، مؤكِّداً لهم أن مكة ستبقى على مكانتها التي نالتها من وجود الكعبة المشرَّفة فيها .

لقد سار بالهَدْي يريد العمرة ، فالظروف مواتية ، والفرصة متاحة للعمرة بعد استتباب الأمن في المدينة المنوَّرة ، وتطهيرها من اليهود الذين وقفوا موقف العداء من الدعوة أوَّل لحظة بعد الهجرة ، وانكسار شوكة المنافقين بعد ذهاب أنصارهم ، والأعراب ذاقوا بأس المسلمين عند دفاعهم عن مدينتهم وأموالهم ، فتمكَّنت رهبة الإسلام في قلوبهم ، فزلزلت نفوسهم .

ولقد سيطر المسلمون على الموقف بعد غزوة الأحزاب ، فساروا يريدون العمرة .

وقريش هنا أمام خيارين لا ثالث لهما : إما أن تمنعهم ، وإما أن تسمح لهم بدخول مكة .

فإن منعت قريشُ رسولَ الله ﷺ ومن معه من دخول مكة ، كشف ﷺ موقفها العدائي ، مثبتاً أن جو الحرب ليس من صنعه

ﷺ ، بل هو من صنع قريش ومن معها ، الذين أرغموه ﷺ عليه إرغاماً .

وإن دخلها ﷺ فإنه سيلتقي بأهل مكة ، وسيحادثهم المسلمون المعتَمِرون ، مما سيبدّد ويزيل جو التوتُّر بين الفريقين ، وإذا التقى المهاجرون بأهليهم ، تتقارب الأرحام ، وتحقن الدماء ، وسيشعر أهل مكة بظلمهم الذي ألحقوه بالمسلمين ، وبخاصة أن المستضعفين المسلمين في مكة ـ الذين لم يهاجروا ـ سيشكّلون رفداً للمسلمين ، وسيجد المستضعفون ملاذاً عند المسلمين أيضاً .

هذا .. ودخول رسول الله ﷺ مكة ، يعني تحقيق انتصار سياسي كبير ، فدخوله ﷺ مكة يعني عودته إلى حيث أُخْرِج على الرغم من قريش !

ففي كلا الحالين ، سيكسب رسول الله ﷺ الجولة على قريش ، فلا بد من الحيلولة بينه وبين دخول مكة بأي ثمن ، ولو كانت الحرب في الأشهر الحرم ، ولو تحرَّج موقفها أمام القبائل بصدّها عن البيت العتيق من جاءه معظّماً محترماً ، ومن أجل هذا ، أَعدّت قريش جيشاً بلغ عدد فرسانه مئتين .

وسنرى في هذا الجزء من (غزوات الرسول الأعظم) ، كيف انتهى الأمر إلى توقيع هدنة مع رسول الله ﷺ لعشر سنوات ،

والهدنة : وقف القتال والعمليات الحربيَّة بين الفريقين المتحاربين بصورة مؤقتة احتياطيَّة ، بناء على اتفاق بينهما ، والهدنة اتفاق عسكري بنصوصه ، إلاَّ أنه يبقى سياسياً بأهدافه .

ووضوح الرؤيا في الابتداء ، جعل رسول الله ﷺ يقبل بنود صلح الحديبية كما أملتها قريش ، فحقَّق الهدف في الانتهاء ، « فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأَمِن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلَّم أَحَدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل تينك السنتين ـ وهما مدّة الهدنة الفعلية قبل نقضها من قبل قريش ـ مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر » .

☆ ☆ ☆

يقول فردريك دينسون موريس[1] : « من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلاّ عندما كان يهدف إلى الغزو » .

وصلح الحديبية يقوّض كل دعائم هذا الإفتراء ـ إن وجدت له دعائم ـ فمن الثابت أن الإسلام كان يصادف النجاح والانتشار في الجو الهادئ ، بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وهذا صلح الحديبية أكبر دليل

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٤٦٩ ، عن :
The Religions of the World. P. 28 «Cambridge», 1852.

على نجاح الإسلام عندما توقف القتال ، فدخل فيه في سنتين اثنتين فقط ، مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر .

وهذا ما حدث مع التتار ، الذين آبوا بسيف الكلمة الطيبة ، التي حملها دعاة الإسلام ، مسلمون يدعون أبناء جلدتهم إلى الإسلام .

وهذا ما حدث أيضاً في انتشار الإسلام في الهند وسيلان والتيبت والصين والفيلبين وأندونيسية وشبه جزيرة الملايو ، وكما حدث ويحدث في إفريقية الوسطى والجنوبية ، وكما يحدث اليوم في أمريكة وأوربة غرباً ، واليابان شرقاً .

☆ ☆ ☆

وقال « سيديو » في كتابه : [تاريخ العرب العام][1] : « أدرك - محمد - أن دينه ينهار إذا ما تبدَّدت حرارة أصحابه بسبب البطَالة ، وكانت الحربُ أفضل وسيلة لإمداد نار الحماسة التي أوقدها ، وكان يجب أن يُوَجِّه إليه الأنظار ، فما يتمُّ له من الانتصارات الحربيَّة يَعُدُّه دليلاً معجزاً على حماية الله له ، فعقد نِيَّتَهُ على سلوك سبيل الجهاد » .

لم يكن فرض الجهاد على المسلمين إلهاءً لهم ، ولا شغلاً لأوقات فراغهم ، ولا دفعاً لبطالة صاروا إليها ، فقد كان عند المسلمين من المهام

---

(1) تاريخ العرب العام ، ل . أ . سيديو ، ط : ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م ، ص : ٦٥ و ٦٦ .

في بنـاء دولتهم ، وإقـامـة مجتمعهم ما يستغرق وقتهم ، ويستنفـد طاقاتهم ، فالجهاد للدفاع عن العقيدة وحمايتها ، لا تشفّياً ولا انتقاماً ، ولا طلباً لمغنم مادي .

ففي الفترة المكيّة لا حرب ولا قتـال ، فكيف حـافـظ رسول الله ﷺ على نار الحماسة التي أوقدها ؟

وكان رسول الله ﷺ المدافع دائماً ، وقريش المهاجمة في بدر وأُحُـد والخندق ..

والدليل المعجز على حماية الله لرسولـه ، كانت ظـاهرة للعيـان في كل مرحلـة من مراحل حيـاة رسول الله ﷺ ، حتى قبل ولادتـه كانت البشائر التي رأتها آمنة بنت وهب ، دليلاً على عناية الله سبحانه ، وهذا ما كان أيضاً في ولادته ورضاعه وطفولتـه وشبـابـه ، وفي بـدء الـدعوة والهجرة حتى وفاته ﷺ ، كانت عناية الله ورعايته تظلّله .

والدليل المعجز لحماية الله ورعايتـه لرسولـه ، لا يـأتي من نصر في معركة فقـط ، بل يتجلّى ذلـك في نجـاح دعوتـه ، وانتشـار الإسلام ، وتوحيد القبائل العربية ، والتفـافهـا لأوّل مرّة في التـاريخ حول رايـة واحدة ، كُتِبَ عليها : الله أكبر ، لا إلـه إلا الله ، محمـد رسول الله حقّـاً وصدقاً .

ولو رأى رسـول الله ﷺ أن استمالـة النـاس إلى الإسـلام لا يتم إلا بالجهاد ، لما وقّع صلح الحديبيـة ، حيث هـادن قريشـاً عشر سنوات ،

فدخل في الإسلام خلال فترة وجيزة ـ دون جهاد وسيف ـ ما دخل فيه خلال سنوات عديدة .

وصلح الحديبية ، وتفاصيل توقيعه ، دليل دامغ على افتراء (فردريك دينسون موريس) و (سيديو) . لقد قبل رسول الله ﷺ شروط قريش ، على ما في ظاهرها من تعالٍ ، ليحقّق هدنة تنتشر فيها المبادئ ، وتُعْرَضُ خلالها البِضَاعةُ الأَجود .

☆ ☆ ☆

ولئن ثبّتَت بدر الكبرى قواعد الدولة الناشئة ، فلقد فتحت الحديبية المجال أمامها لتصل إلى الهدف الذي كان رسول الله ﷺ ببعد نظره ، ودقّة تقديراته يرمي إليه ، ألا وهو وحدة العرب في وحدة عقيدتهم ، وفي وحدة صَفّهم ، ليتابعوا بعدها تبليغ الرسالة للناس أجمع :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيْراً وَنَذِيراً ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾ [سبأ : ٢٨] .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١] .

ولم يعبأ رسول الله ﷺ عندما سار إلى الحديبية بيهود خيبر ، لأنهم لن يقدموا على عمل عسكري ضد المسلمين في المدينة ، إلاّ بعد

حسابات دقيقة ، فمصير بني قينقاع ، وبني النضير ، وبني قريظة على التسلسل ، ليس عن البال ببعيد ، بل إنه ماثل أمام ناظريهم .

وسنرى في صلح الحديبية ، على الرغم من أن موقف الصحابة كان في موضع تساؤل :

- قبول النبي ﷺ العودة دون عمرة .

- وقبوله شروط قريش كما أملاها سهيل بن عمرو .

- وعدم حلق وذبح المسلمين لِهَدْيِهِم فور صدور الأمر ..

رغم ذلك ، سنرى السيطرة التامة لرسول الله ﷺ على الموقف ، لأنه أدرى بما يعمل ، وأعلم بما يخطط : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً ، وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الفتح : ١ و ٢ و ٣ و ٤] .

فإلى صلح الحديبية ، أحداثاً وتحليلاً ، على بركة الله ، فهو من وراء القصد .

دمشق في ١ ذو القعدة ١٤٠٢ هـ .
الموافق ٢٠ آب (أغسطس) ١٩٨٢ م .

شوقي أبو خليل
ص . ب : ٦٢٢٢
دمشق - سورية
Shawki@ Fikr.com

من الخندق إلى الحديبية

☆ غزوة بني لِحْيان .

☆ غزوة ذي قَرَد .

☆ غزوة بني المُصْطَلَق .



غزوة بني لحيان

☆ « آيبون تائبون ، إن شاء الله لربنا حامدون ، أعوذ بالله من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في الأهل والمال ، اللّهم بلّغنا بلاغاً صالحاً ينظر إلى خير مغفرتك ورضوانك » .

رسول الله ﷺ

قدم على رسول الله ﷺ في السَّنَة الثالثة للهجرة ـ وبعد غزوة أُحد ـ رهطٌ من قبيلتي عضل والقارة ، وقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً فابعث فينا نفراً من أصحابك يفقهونا في الدين ، ويقرئونا القرآن ، ويعلمونا شرائع الإسلام ، فبعث ﷺ ستة نفر من أصحابه .

وعلى الرجيع[1] غدروا بهم ، واستصرخوا عليهم هذيلاً ، فقتلوا مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وخالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت[2] ، وعبد الله بن طارق[3] ، وباعوا قريشاً زيد بن الدّثنّة وخُبَيب بن عدي ، فقتل ـ في مكة ـ صفوانُ بن أُمية زيدَ بن الدثنّة ، وقتل

(١) ماء لهذيل بناحية الحجاز .

(٢) وهذيل هذه هي التي أرادت أخذ رأس عاصم بن ثابت لتبيعه من سلافة بنت سعد ، راجع غزوة الخندق في هذه السلسلة .

(٣) قتل في الظهران ، والظهران : واد قريب من مكة .

حُجَير بن أبي إهاب التميمي خُبَيب بن عدي .

وفي ربيع الأول من سنة ستٍّ للهجرة ، طلب رسول الله ﷺ بني لحيان[1] بأصحاب الرجيع ، فسار بمئتين من المسلمين ، معهم عشرون فَرَساً ، واتَّجه شمالاً وأظهر أنه يريد الشام ، ليدرك من القوم غرة .

ومفاجأة العدو بالهجوم ليلاً ، أو في أنواء صعبة ، أو في مواقع لا يتوقَّع الهجوم منها ، من الخدع الحربيَّة المشروعة في قانون الحرب الدولي العام[2] .

ومشروع أيضاً التَّخفي والاستتار عن أنظار العدو ، وأخذه على حين غرة[3] .

واستخلف رسولُ الله ﷺ على المدينة عبدَ الله بن أُم مكتوم[4] .

ولما وصل رسول الله ﷺ إلى المكان الذي قُتِل فيه أصحاب

---

(١) بناحية عُسفان ، ولحيان بكسر اللام وفتحها ، وهي قبيلة من هذيل .

(٢) الحرب في القانون الدولي العام ، ص ١١٣ .

(٣) الحرب في القانون الدولي العام ، ص ١١٤ . والغرة : الغفلة .

(٤) عبد الله بن أُم مكتوم : عمرو بن قيس بن زائدة القرشي العامري ، ابن أُم مكتوم الأعمى ، وبه عاتب اللهُ نبيَّه : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » ، وأمه أُم مكتوم اسمها : عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وهو ابن خال خديجة بنت خويلد ، واختُلِف في اسمه ، فقيل عبد الله ، وقيل عمرو . هاجر بعد بدر بيسير . استخلفه ﷺ على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته منها : غزوة الأبواء ، وبُوَاط ، وذو العُشيرة ، وعندما خرج إلى جُهَينة في طلب كرز بن =

الرجيع ، ترحَّم ﷺ عليهم ، ودعا لهم بـالمغفرة ، فسمعت بـه قبيلـة بني لحيـان ففرَّ أبنـاؤهـا إلى رؤوس الجبـال حـذراً وخـوفـاً ، وأرسـل ﷺ السَّرايا في كل ناحية ، فلم يجدوا أحداً[1] .

وأقام ﷺ يوماً أو يومين ، ثم هبط عُسفان ، لعل قريش ترى أنه قد جاء مكة ، فترهب المسلمين وتشعر بقوتهم أكثر ، وكانت مدّة غيـابـه ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة[2] .

قـال جـابر بن عبـد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقـول حين وجه راجعاً : « آيبون تائبون ، إن شاء الله لربِّنا حامدون ، أعوذ بـالله من وعثاء السَّفر[3] ، وكآبة[4] المنظر ، وسوء المنقلب في الأهل والمال » ،

= جـابر ، وفي غـزوة السـويـق وغطفـان وأحـد وحمراء الأســد وذات الرقــاع وذي قَرَد وعمرة الحديبية ، « أُسد الغابة ، ج ٤ ص ٢٦٣ » .

(١) أخبـار غـزوة بني لحيـان في المراجـع التـاليـة : الاكتفــاء ، جـ ١ ص ١٢٢ / ب ، الطبري ، جـ ٢ ص ٥٩٥ ، ابن خلـدون ، جـ ٢ ص ٣٢ ، عيون الأثر ، جـ ٢ ص ٨٣ ، السيرة النبـويـة والآثار المحمدية ، جـ ٢ ص ١٦٥ ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ ص ١٢٨ ، البدايـة والنهـايـة ، جـ ٤ ص ١٤٩ ، ابن هشـام ، جـ ٣ ص ١٧٤ ، الـوفـا بـأحـوال المصطفى ، جـ ٢ ص ٦٩٦ ، السيرة الحلبية ، جـ ٣ ص ٢ .

(٢) السيرة الحلبية ، جـ ٣ ص ٢ .

(٣) وعثاء السفر : مشقته وشدته ، لسان العرب ، جـ ٢ ص ٢٠٢ .

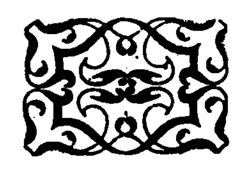
(٤) الكآبة : سوء الحال والانكسار من الحزن ، وتغيُّر النفس بالانكسار وشدة الهم والحزن ، لسـان العرب ، جـ ١ ص ٦٩٤ .

وزاد في السيرة النبويَّة والآثار المحمدية : « اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً ينظر إلى خير مغفرتك ورضوانك[1] »

☆ ☆ ☆

قال كعب بن مالك في غزوة بني لحيان :

لو أن بني لحيان كانوا تناظروا لقوا عصباً في دارهم ذات مصدق[2]
لقوا سَرَعَاناً يملأ السرب روعة أمام طَحونٍ كالمجرَّة فيلق[3]
ولكنهم كانوا وباراً تتبَّعت شعابَ حجازٍ غيرِ ذي متنفق[4]



---

(١) السيرة النبوية والآثار المحمدية ، جـ ٢ ص ١٦٦ .

(٢) تناظروا : انتظروا ، والعصب : الجماعات .

(٣) سَرَعان : من يتقدمون الجيش ، والسرب : الطريق . والطحون : الكتيبة الضخمة ، والمجرَّة : مجموعة من النجوم ، والفيلق : الكتيبة .

(٤) الوبار : جمع وبر ، وهي دويبة صُغيرة تشبه الهرة ، والمتنفق : الذي له منفذ ينفذ به .

غزوة ذي قَرَد

"غزوة الغابة"

☆ « خير فرسـاننـا أبـو قتـادة ، وخير رجـالتنـا سلمـة - ابن الأكـوع - بـارك الله فيـك يـا أبـا قتـادة ، وفي ولدك وولد ولدك » .

رسول الله ﷺ

وفي سنــة ستٍّ من الهجرة أيضــاً أغــار عيينــة بن حصن بن حـذيفـة بن بـدر الفزاري في خيل من غطفـان عـددهـا أربعون ، على لقاح[1] لرسول الله ﷺ في الغابة من ضواحي المدينة .

ذكر ابن سعـد : كان في اللقـاح[2] أبـو ذر وزوجـه ليلى وولــده ، فقتلـوا ولـده واحتملـوا المرأة . وجـاء أن أبـا ذر رضي الله عنـه استـأذن رسـول الله ﷺ أن يكـون في اللقـاح ، فقـال لـه ﷺ : « لا تـأمن عيينة بن حصن وذويـه أن يغيروا عليـك » ، فـألح عليـه ، فقـال لـه

---

(١) اللقاح : النوق ذات اللبن ، القريبة من الولادة .

(٢) وكانت عشرين لقحة ، السيرة الحلبيـة : ٣ / ٤ ، وكان راعيها يرجع بلبنها كل ليلة عند المغرب إلى المدينة ، فالمسافة بينها وبين المدينة نحو يوم كما في السيرة الحلبية ، وفي معجم البلدان : جـ ٤ ص ٣٢١ : كانت اللقاح في ذي قَرَد ، وهي ماء على ليلتين من المدينة ، بينها وبين خيبر .

ﷺ : « لكأني بك قد قُتِل ابنـك وأُخـذت امرأتـك وجئت تتوكّـأ على عصـاك » ، فكان أبو ذر يقول عجبـاً لي ورسـول الله ﷺ يقـول لكأني بك وأنا أُلح عليه ، فكان والله ما قال رسول الله ﷺ ، فـإني والله لفي منزلنـا ولقـاح رسول الله ﷺ روحت وَحُلِبَت عتمتهـا ونمنـا ، فلمـا كان الليل أحدق بنا عيينة بن حصن في أربعين فـارسـاً ، فصـاحوا بنـا وهم قيـام على رؤوسنـا ، فـأشرف لهم ابني فقتلـوه ، وكان معـه ثـلاثـة نفر فنجوا ، وتنحيت عنهم وشغلهم عني إطلاق عقـل اللقـاح ثم صـاحـوا في أدبارها فكان آخر العهد بها .

واحتمل فرسان غطفان مع اللقاح ليلى زوج أبي ذر .

وسـار من نجـا إلى المـديـنـة ، فكان أول من لقيهم سلمـة بن الأكوع[1] ، الذي خرج من داره قبل أن يؤذن لصلاة الصبح ، ولمـا علم الخبر أشرف من ناحية جبل سلع ، ثم صرخ ثلاثاً : واصبحاه[2] ، فـأسمع أهل المدينة ، ثم خرج يشتد في آثار القوم ، وكان شجاعاً قوياً جريئاً ، فجعل يرد خيل غطفان بالنبل ويقول :

---

(١) سلمـة بن الأكوع ، وقيل سلمـة بن عمرو الأكـوع ، واسم الأكـوع سِنـان بن عبـد الله بن قشير الأسلمي ، كان شجاعاً رامياً محسناً خيّراً فـاضلاً . غزا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ، قـال ابنه إياس : ما كذب أبي قـط ، وبعـد مقتل عثمان خرج إلى الرَّبَـذَة فلم يزل هنـاك حتى كان قبل أن يموت بليال عاد إلى المدينـة ، حيث توفي سنـة أربع وسبعين للهجرة وهو ابن ثمانين . « أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٤٢٣ » .

(٢) واصبحـاه : كلمـة تقـال عنـد استنفـار من كان غـافلاً عن عـدوه ، ويسمون يوم الغـارة يـوم الصباح .

خُذْها وَأنـا ابنُ الأكوعْ اليـومَ يَـومُ الرُّضَّـعْ[1]

وترامت الخيـل إلى رسـول الله ﷺ وفيهم المقـداد بن الأسـود وعبـاد بن بشر وسعـد بن زيـد وأُسيـد بن حضير وعكاشـة بن محصن ومحرز بن نَضْلَة وأبو قتـادة الحـارث بن ربعي وأبـو عيـاش عبيـد بن زيد بن الصامت ، فأمَّر عليهم ﷺ سعد بن زيـد وقـال : « اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس »[2] .

وقبل أن يصـل هـؤلاء الفرسـان ، كان ابن الأكـوع يرمي خيـل غطفان بالنبل ، فإذا تضـايق علا الجبل فردَّهم عنـه بـالحجـارة ، فقـال عيينة الفَزاري : ما هذا الذي أرى ؟ قـالوا : لقينـا من هـذا البَرْحَ[3] ، مـا فـارقنـا بِسَحَرٍ حتى الآن ، وأخـذ كل شيء بـأيـدينـا وجعلـه وراء ظهره ، فقـال عيينـة : لولا أن هـذا يرى أن وراءه طلبـاً لقـد تركك ،

---

(١) الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٢٣ / ١ ، الطبري : جـ ٢ ص ٥٩٩ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٣٠ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ١٥٠ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٨٤ ، السيرة النبـويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٨٦ ، السيرة الحلبيـة : جـ ٣ ص ٥ ، ابن هشـام : جـ ٣ ص ١٧٦ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٥ .. واليومَ يومُ الرضَّع : يريـد هلاك الرضَّع ، والرضَّع : اللئـام ، من قولهم : لئيم راضع ، وهو الـذي يرضع الغنم ولا يحلبها فَيُسْمَع صوتُ الحليب . فهو يريد : اليومَ يومُ جبنهم وهلاكهم .

(٢) ابن سعد : جـ ٤ ص ٣٠٥ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٧٦ ، السيرة النبويـة والآثـار المحمـديـة : جـ ٢ ص ١٦٩ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٥ .

(٣) البَرْحُ : الشر والعذاب الشديد ، وبرَّح بـه عـذَّبـه ، والتبـاريح : الشـدائـد ، لسـان العرب : جـ ٢ ص ٤٠٨ .

ليقم إليه نفر منكم . فقام إليه أربعة منهم فصعدوا في الجبل ، فلما أسمعهم الصوت قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه : أتعرفونني ؟ قالوا : ومن أنت ؟ قال : أنا ابنَ الأكوع ، والذي كرَّم وجه محمد لا يطلبني رجل منكم فيدركني ، ولا أطلبه فيفوتني .

فقال رجل منهم : إنْ أظن ، قال ابن الأكوع : فما برحت مقعدي ذلك حتى نظرت إلى فوارس رسول الله ﷺ يتخلّلون الشجر ، وإذا أولهم مُحْرِز بن نَضْلَة[1] ، وعلى أثره أبو قتادة ، وعلى أثره المقداد بن الأسود ، فولّى فرسان عيينة مدبرين .

وقال محرز بن نضلة لما وصل العدو : قفوا معشر بني اللكيعة حتى يلحق بكم من وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار ، ونزل من الجبل آخذاً بعنان فرسه ، فقال له ابن الأكوع : يا أخرم - لقب محرز بن نضلة - احذر القوم ، فإني لا آمن أن يقتطعوك ، فاتئد حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه ، قال محرز : يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ، وتعلم أن الجنّة حق ، والنار حق ، فلا تحل بيني وبين الشهادة . قال ابن الأكوع : فخليت عنان فرسه فلحق بعبد الرحمن[2] بن عيينة ، وعطف عليه عبد الرحمن ، فاختلفا طعنتين فعقر

---

(١) مُحْرِز بن نَضْلَة ، قيل له قمير ، وقيل له الأخْرم الأسدي ، والخَرْم : خَرَم الخَرَزَةَ يخرِمُها خَرْماً وخَرَّمَها فتخرّمت : فَصَمَها ، وخَرِمَ الرجل خَرَماً فهو مَخْرُوم وهو أَخْرَم : تخرّمت وَتَرَةُ أنفه وقطعت ، وهي ما بين منخريه ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ١٧٠ .

(٢) في السيرة الحلبية (عبد الرحمن) وفيها أيضاً مع المراجع الأخرى فطعنه (حبيب) فقتله . =

محرز فرس عبد الرحمن ، وطعنه عبد الرحمن فقتله[1] . فلحق أبو قتادة عبد الرحمن فقتله وغشاه برده .

ولما تلاحقت الخيل وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين ، فإذا عبد الرحمن مسجى ببرد أبي قتادة ، فاسترجع الناس وقالوا : قُتِل أبو قتادة ، فقال ﷺ : « ليس بأبي قتادة ، ولكنه قتيلٌ لأبي قتادة ووضع عليه برده لتعرفوا أنه صاحبه » .

وأدرك عكاشة بن محصن أوباراً وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد ، فانتظمهما بالرمح فقتلهما .

واستنقذ المسلمون عشر لقاح[2] ، وسار رسول الله ﷺ بالمسلمين وكانوا خمسمئة مجاهد حتى نزل بالجبل من ذي قَرَد[3] ، فأقام عليه - بعد

= فحبيب هو عبد الرحمن . وفي أُسد الغابة جـ ٥ ص ٧٣ : « الأخرم الأسدي قتله مسعدة بن حكمة بن مالك » !

(١) ذكر ابن إسحق : لم يقتل يومئذ من المسلمين غيره ، وقال بعض أهل العلم أنه قتل معه أيضاً وقاص بن مُجزز المدلجي .

(٢) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٥١ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٧٠ .

(٣) فعرفت الغزوة بغزوة ذي قَرَد - أو غزوة الغابة - وقَرَد اسم ماء ، والقَرَد في الأصل الصوف الرديء ، وقيل لها غزوة الغابة ، والغابة : الشجر الملتف ، وأخبار ذي قَرَد في : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٢ / ب ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٨٦ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٧٥ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٢ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٨٤ ، الطبري : جـ ٢ ص ٥٩٦ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٦٦ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٥٠ .

أن تلاحق الناس ـ يوماً وليلةً .

وقال له سلمة بن الأكوع : يا رسول الله لو سرحتني في مئة رجل لاستنقذت بقية السرح ، وأخذت بأعناق القوم ، فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته ، فقال ﷺ : « أكنت فاعلاً ذلك يا سلمة ؟ » قال : نعم والذي أكرمك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه في ضوء نار أوقدها بلال في الليل ، بعد أن نحر جزوراً ، وأخذ من كبدها وسنامها ليشوي لرسول الله . فقال ﷺ : « إنهم الآن لَيُغْبَقُونَ[1] في غطفان » . فقال ابن الأكوع : يا رسول الله إن القوم عطاش[2] ، فقال ﷺ : « ملكت فأَسْجِحْ[3] ، إنهم الآن في غطفان يُقْرَوْنَ[4] » .

وبعث سعد بن عبادة رضي الله عنه ـ والذي بقي في المدينة في ثلاثمئة يحرسونها[5] ـ بأحمال تمر وبعشر جزائر فوافق رسول الله ﷺ بذي قَرَد ، فقال ﷺ : « اللهم ارحم سعداً وآل سعد ، نعم المرء

---

(١) يشربون اللبن بالعشي الذي هو الغبوق ، الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٣ / ١ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٣ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٨٦ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٧٨ .

(٢) لقد ردّهم ابن الأكوع عن الماء فولّوا عطاشاً .

(٣) أَسْجِح : اِرفق وارحم ، لأن سلمة كان يريد قتلهم ، فالمراد ، قدرت عليهم فأحسن وارفق ، والسجاحة : السهولة .

(٤) قَرَوْتُ البلاد قَرْواً وقريتها قَرْياً واقتريتها إذا تتبعتها تخرج من أرض إلى أرض ، لسان العرب : جـ ١٥ ص ١٧٤ .

(٥) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٨ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٧١ .

سعد بن عبادة[1] » . فقالت الأنصار : هو سيدنا ، وابن سيدنا ، من بيت يطعمون في المَحْل[2] ، ويحملون الكَلّ[3] ، ويحملون عن العشيرة ، فقال ﷺ : « خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا في الدين » .

وأقبلت امرأة أبي ذر على ناقة من إبل رسول الله ﷺ ، من جملة اللقاح التي أُخذت ، وهي (القصوى) ، أفلتت من القوم فطلبوها فأعجزتهم[4] ، ونذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرنَّها ، فلما أَخبرت رسول الله ﷺ الخبر ، قالت : يا رسول الله ، قد نذرت أن أنحرها إن نجاني الله عليها ، وآكل من كبدها وسنامها . فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال : « بئسما جزيتها ، أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرينها ، لا نذر في معصية الله ، ولا فيما لا تملكين ، لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم » .

---

(١) سعد بن عبادة الأنصاري سيد الخزرج ، قبره بالمليحة في غوطة دمشق ، مشهور يزار إلى يومنا هذا . أُسد الغابة : جـ ٢ ص ٣٥٦ .

(٢) المَحْلُ : الشدة ، والمحل : الجوع الشديد وإن لم يكن جدب ، والمحل : نقيض الخِصب ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٦١٦ .

(٣) الكَلُّ : العياء ، كَلَلْتَ من المشي أَكِلُّ كلالاً وكَلالة أي أعْيَيْتَ ، لسان العرب : جـ ١١ ص ٥٩١ .

(٤) وفي رواية : انفلتت المرأة من الوثائق ليلاً فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه ، حتى انتهت إلى ناقة ذلول مُجَرَّسة ، أي مدربة في الركوب والسير ، فلم ترغ فقعدت على عجزها ثم زجرتها ، وعلموا بها فطلبوها فأعجزتهم .

ولا يخرج هـذا المـال من ملـك النبي ﷺ بجوز العـدو لـه ، وقـال ﷺ : « لا نذر فيما لا يملك ، ولا طلاق لأحد فيما لا يملـك ، ولا عتق لأحد فيما لا يملك »[1] .

ولمـا أصبح القوم ، قـال ﷺ : « خير فرسـاننـا أبو قتـادة ، وخير رجـالتنـا سلمـة ، بـارك الله فيـك يـا أبـا قتـادة وفي ولـدك وولـد ولدك »[2] .

ثم عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة .





---

(١) الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٢٣ / ب ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ١٥١ ، السيرة النبويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٩٤ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٧٨ و ١٧٩ .

(٢) الطبري : جـ ٢ ص ٥٩٩ ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٣٣ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٣٠ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ٨٨ ، السيرة النبـويـة والآثـار المحمـديـة : جـ ٢ ص ١٧٠ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٩٢ .

غزوة بني المُصطَلق

غزوة المُرَيْسِيع

شعبان ٥ هـ

☆ ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ المُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

[المنافقون : ٨]

سببها : جمع الحارث[١] بن ضرار سيد بني المُصْطَلق[٢] لحرب رسول الله من قدر عليه من قومه ومن الأعراب . فأرسل رسول الله ﷺ بُرَيدة بن الحُصَيب ليستجلي الأمر ، واستأذن بُرَيدةُ رسولَ الله ﷺ أن يقول ما يتخلّص به من شرّهم ، وإن كان خلاف الواقع ، فأذن له رسول الله ﷺ .

ورد بُرَيدة على بني المصطلق ، ورأى جمعهم ، فقالوا له : من

(١) ورد « اسمه الحارث » ، كما ورد اسمه « الحرث » كما في الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٤ / ب .

(٢) وهم بنو جذيمة بن كعب من خزاعة ، وجذيمة هو المصطلق من الصلق وهو رفع الصوت . وسميت الغزوة بغزوة محارب ، وبغزوة المُرَيْسِيع اسم ماء من مياههم ، من ماء خزاعة ، مأخوذة من قولهم رسعت عين الرجل إذا دمعت من فساد ، وذلك الماء في ناحية قُدَيد ، راجع : الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٧ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٨٢ ، والبداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٥٦ .

الرجل ؟ فقال : رجل منكم قدمت لما بلغني من جمعكم لهذا الرجل فأسير في قومي ومن أطاعني ، فنكون يداً واحدةً حتى نستأصلهم ، فقال له الحارث : فنحن على ذلك ، فعجِّل علينا . فقال بُرَيدة : أركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومي ، فسرُّوا بذلك ، ورجع بُرَيدة إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر القوم .

سير الغزوة : ندب رسول الله ﷺ الناس لبني المصطلق ، وخرج في ٢ شعبان سنة ٥ من الهجرة[١] بسبعمئة من أصحابه[٢] . ومعهم ثلاثون فرساً ، عشرة للمهاجرين وعشرون للأنصار ، واستخلف ﷺ على المدينة زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وخرجت معه عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما . وخرج معه عدد كبير من المنافقين ، لم يخرجوا في غزوة قط مثلها ، منهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول ، وزيد بن الصلت ، ليس لهم رغبة في الجهاد ، وإنما غرضهم أن يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة ، ولبث شائعاتهم في صفوف الجند المسلم .

وأصاب رسول الله ﷺ عيناً كان الحارث قد وجهه ليأتيه بخبر رسول الله ﷺ ، فسأله رسول الله عن بني المصطلق ، فلم يذكر من شأنهم شيئاً ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر رسول الله ﷺ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أن يضرب عنقه ، فضرب عنقه .

---

(١) كما في البخاري نقلاً عن ابن عقبة ، وعليه جرى الإمام النووي في الروضة .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٩٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٥٦ .

فلمـا بلغ الحـارث مسير رسول الله ﷺ ، وأنـه قتـل عينـه ، سيء بذلك ومن معه ، وخافوا خوفاً شديداً ، وتفرّق عنـه جمع كثير ممن كان معه[1] .

المعركة : وعند ماء المريسيع ، تهيأ المسلمون للقتـال ، ودفع ﷺ رايـة المهـاجرين إلى أبي بكر الصـديق ، ورايـة الأنصـار إلى سعـد بن عبادة . وأمر عمر بن الخطـاب أن يقول لهم : قولوا لا إلـه إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم ، ففعل عمر ذلك فأبوا .

وترامى الطرفان ساعـة ، ثم أمر رسول الله ﷺ أصحـابـه فحملوا حملة رجل واحد ، فما أفلت من المشركين إنسـان ، وقتل المسلمون منهم عشرة وأُسر سائر القوم رجالاً ونساءً وذريَّةً واستاق إبلهم وشياههم[2] .

وقتل من المسلمين رجل واحد فقط ، هو هشام بن صبـابـة ، قتل خطـأ من قِبَل الأنصـار ، فقـدم أخ لـه من مكـة على رسـول الله ﷺ

---

(1) أخبـار غـزوة بني المصطلـق في الاكتفـاء : جـ ١ ص ١٢٤ / ب ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٤ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ١٥٦ ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٣٣ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ٩١ ، ابن هشـام : جـ ٣ ص ١٨٢ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٨٢ ، السيرة النبـويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٢٩٧ ، السيرة النبـويـة والآثـار المحمديـة : جـ ٢ ص ١٠٧ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٧ .

(2) فكانت الإبل ألفي بعير ، والشياه خمسة آلاف شـاة ، استعمل ﷺ عليهـا مولاه شُقران واسمه صالح .

مظهراً الإسلام ، وطلب الدية ، فأمر له ﷺ بدية أخيه ، فأخذها وكانت مئة من الإبل ، وأقام عند رسول الله ﷺ غير كثير ، ثم عدا على قاتل أخيه فقتله ، ثم خرج إلى مكة مرتداً[1] ، وهو يقول :

شَفَى النَّفْسَ أنْ قَدْ باتَ بِالقَاعِ مُسْنَداً
تُضَرِّجُ ثوبَيْهِ دِمَاءُ الأَخادِعِ[2]

وَكَانَتْ هُمُومُ النَّفسِ من قَبْلِ قَتْلِهِ
تُلِمُّ ، فتَحْمِيني وِطَاءَ المَضَاجِعِ

حَلَلْتُ بِهِ وِتْرِي وأدركْتُ ثُؤْرَتِي[3]
وكنتُ إلى الأَوْثانِ أَوَّلَ رَاجِعِ

ثَأَرْتُ بِهِ فِهْراً وحمَّلتُ عَقْلَهُ
سَرَاةَ بني النَّجَّارِ أَرْبابَ فِارِعِ[4]

وقال مقيس بن صبابة أيضاً :

---

(١) واسمه مِقيص بن صبابة ، ولهذا كان مِقيس من الأربعة الذين أهدر رسول الله يوم فتح مكة دماءهم وإن وجدوا معلقين بأستار الكعبة .

(٢) الأخادع : جمع أخدع وهو عرق في المحجمتين ، وهو شعبة من الوريد . لسان العرب ٨ ص ٦٦ .

(٣) وتري : ثأري ، والموتور الذي قُتل له قتيل فلم يدرك دمه ، لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٧٤ ، والثُّؤرة : الثأر الطلب بالدم ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٩٧ .

(٤) بنو النجار : الأنصار ، والفارع : المرتفع العالي الهيِّئُ الحسن . لسان العرب : جـ ٨ ص ٢٤٧ . وفارع هنا : اسم حصن بالمدينة . معجم البلدان : جـ ٤ ص ٢٢٨ . والأبيات هنا حسب ضبط الطبريّ لها : جـ ٢ ص ٦٠٩ .

جللته[1] ضربة باتت لها وشل[2] من ناقع الجوف يعلوه وينصرمُ
فقلت والموت تغشاه أسرته لا تأمن بني بكر إذا ظُلِموا[3]



جُوَيرِية بنت الحارث سيد بني المصطلق :

وكانت برّة بنت الحارث سيد بني المصطلق في السبي[4] . قالت برّة : أتانا رسول الله ﷺ ونحن على المريسيع فأسمع أبي يقول : أتانا ما لا قِبَلَ لنا به ، فلبثت أرى من الناس والخيل والسلاح ما لا أصف من الكثرة[5] .

ووقعت برّة في سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، فجعل ثابت لابن

---

(١) جللته : جَلَّل الشيء تجليلاً أي عمَّ ، والمُجَلِّل : السحاب الذي يجلل الأرض بالمطر أي يعم . لسان العرب : جـ ١١ ص ١١٨ ، والمراد هنا علوته ورفعت فوق هامته .

(٢) الوَشَل : الماء القليل يقطر من صخرة أو جبل . لسان العرب : جـ ١١ ص ٧٢٥ ، والمراد هنا يسيل دمه ..

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٥ / ١ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٨٥ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٩٥ .

(٤) وبعد انتصار المسلمين واستثمار النصر ، بعث ﷺ أبا ثعلبة الطائي إلى المدينة بشيراً من المريسيع . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٩٥ .

(٥) تقول برّة : فلما أن أسلمت وتزوجني رسول الله ﷺ ورجعنا ، جعلت أنظر إلى المسلمين فليسوا كما كنت أرى ، فعلمت أنه رعب من الله تعالى يُلْقيه في قلوب المشركين ، ويؤيِّد هذا قول رجل منهم أسلم وحسن إسلامه : لقد كنا نرى رجالاً بيضاً على خيل بُلْق ، ما كنا نراهم قبل ولا بعد ، وهذا يدل على أن الملائكة كانت مدداً للمسلمين في هذه الغزوة .

عمه نخلات له بالمدينة في حصته من برّة ، ثم كاتبها[1] على تسع أواق من ذهب .

ثم دخلت برّة على رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إني امرأة مسلمة ، أسلمت لأني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وإني برّة بنت الحارث سيد قومه ، أصابنا من الأمر ما قد علمت ، ووقعت في سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، وخلصني ثابت من ابن عمه بنخلات في المدينة وكاتبني على ما لا طاقة لي به ، وإني رجوتك فأعني في مكاتبتي .

فقال رسول الله ﷺ : أوخير من ذلك ؟!

قالت : وما هو ؟

قال ﷺ : أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك .

قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت .

فأرسل رسول الله ﷺ إلى ثابت بن قيس فطلبها منه ، فقال ثابت : هي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي . فأدّى رسول الله ﷺ ما كان كاتبها عليه وأعتقها وتزوجها وسمّاها جويرية .

---

(١) المكاتبة : هي عقد بين السيد والعبد لإعادة الحرية نظير دفعه مالاً لسيده ، وهي عند الإمام أحمد بن حنبل واجبة متى دعا العبد سيده إليها ، وإذا امتنع المكاتب على الأداء ومعه ما بقي من المال فالحنفية تجبره على الأداء حرصاً على تحريره ، وإذا لم يكن معه مال وهو قادر على الكسب فالمالكية تجبره على الكسب .

نتائج هذا الزواج السياسي !

كان زواج رسول الله ﷺ هذا لأغراض سياسية ودينية .

لقد أراد ﷺ الانتفاع بالمصاهرة ، واتخاذها وسيلة لاجتذاب عطف القبائل وكسر حدة عدائها .

لقد كان زواجه ﷺ من قريش سيدة العرب لتأليف القلوب إلى الإسلام ، مع رأفته وعطفه وإكرامه ﷺ على من ذل بعد عز .

تقول جويرية : ما كلمته في قومي[1] .

ولكن الناس قالوا : أصهار النبي ﷺ ، فاعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبي[2] .

قالت عائشة رضي الله عنها : « لا أعلم امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية ، أُعتق بتزويجها لرسول الله ﷺ أهل مئة بيت[3] » ، وقيل في حقها : ما عُرِفت امرأةٌ هي أيمن على قومها منها .

وأسلمت جويرية وحَسُنَ إسلامها ، وجاء والدها إلى المدينة ،

---

(١) البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٥٩ ، السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) الطبري : جـ ٢ ص ٦١٠ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٩٥ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٣١ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٣ ، السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٣) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٤ / ب ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٠٣ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٥ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٨٦ .

وقال لرسول الله ﷺ : يا محمد ، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها ، فإن ابنتي لا يُسبى مثلها .

فقال له رسول الله ﷺ : « أرأيت أن أُخيرها ، أليس قد أحسنتُ ؟ » .

فأجاب والدها : « بلى » ، فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت : اخترت الله ورسوله . ولما علم أبوها بإكرام رسول الله ﷺ منذ أسرها ، وكيف أدى ﷺ ما كاتبها عليه ثابت بن قيس ، صاح بصوت جهير : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، وأعطاه رسول الله ﷺ - زيادة في التقدير وتألفاً لقلبه - صداقاً قدره أربعمئة درهم .

☆ ☆ ☆

دعوى جاهلية نتنة :

وفي هذه الغزوة وقع خصام بين غلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقال له جهجاه بن مسعود[1] ، مع رجل من حلفاء الخزرج[2] . فضرب غلامُ عمر حليفَ الخزرج ، فنادى يا معشر الأنصار ، ونادى

---

(١) في الاكتفاء : جهجاه بن مسعود وكذلك في ابن هشام . وفي الطبري عن الإصابة : جهجاه بن سعيد .

(٢) تتمة سير الأحداث تجعله غلاماً حليفاً لعبد الله بن أُبيّ بن سلول واسمه : سنان بن فروة . « السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٠١ » . وسنرى أن الفتنة نمّاها واستغلها المنافقون بزعامة ابن أُبيّ بن سلول .

غلام عمر : يا معشر المهاجرين . وكاد أن تكون فتنة عظيمة ، فخرج ﷺ فقال : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة[١] » ، ثم كلموا المضروب فترك حقَّه وسكنت الفتنة .

وغضب عبد الله بن أُبي بن سلول عند تخاصم الرجلين ، وكان عنده رهط من قومه المنافقين ، فهو وهم جميعاً ممن لم يستطيعوا التلاؤم مع البيئة الجديدة التي جعلت رابطة العقيدة أقوى وأرسخ من رابطة العصبية القبلية في النفوس .

قال ابن أُبي بن سلول : والله ما رأيت كاليوم مذلة وقد فعلوها ، نافرونا[٢] وكاثرونا في بلادنا ، وأنكرونا ملتنا ، والله ما أعدنا[٣] وقريش[٤] ، إلا كما قال الأقدمون في أمثالهم : سَمِّن كلبك يأكلك ، ويقولون : أجع كلبك يتبعك . والله إني لقد ظننت أني سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعز منها الأذل[٥] .

---

(١) يعني أنها كلمة خبيثة لأنها من دعوى الجاهلية ، وجعل الله عز وجل المؤمنين كلهم إخوة ويداً وفئة واحدة ، فإنما ينبغي أن تكون الدعوة يا للمسلمين .

(٢) غلبونا : ونِفَار الشيء من الشيء : تجافيه عنه وتباعده . مختار الصحاح : ٦٧٢ .

(٣) أظننا : أحسبنا .

(٤) يعني هنا بقريش المهاجرين الذين في المدينة فقط .

(٥) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٤ / ب ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٠٣ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٥٩ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٥ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٨٦ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١١٧ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٩٣ .

ثم قال للمنافقين : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضّوا من عند محمد .

وهنا نقف قليلاً لنقول :

إن الخصام الذي وقع بين الغلامين ، كان على الماء ، وفي رواية في السيرة الحلبية[1] أن الذي اختصم مع جهجاه غلام حليف لعبد الله بن أُبيّ بن سلول اسمه سنان بن وفرة ، وفي الرواية ذاتها : إن جهجاه غلام عمر بن الخطاب لم يضرب سنان بن وفرة حليف ابن أُبيّ بن سلول ، بل « كسعه » فقط - أي دفعه - فنادى مخصّصاً : يا للخزرج تحديداً ، وهم قوم ابن أُبيّ بن سلول !؟!

ومع ما حدث ، أسكن رسول الله ﷺ الفتنة ، وجعلها منتنة جاهلية ، فعاد الجميع إلى الإيمان والتقوى ، والذي حدث لم يكن ليرضي ابن أُبيّ بن سلول ، فكأنه على موعد مع غلامه سنان بن وفرة لإثارة الفتنة بعد النجاح الذي لاقاه رسول الله ﷺ والمسلمون في غزوتهم هذه ، مما جعل الحقد والحسد يأكلان كبده ، والبغضاء والعداوة

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٠١ .

تعملان في قلبه ، فخطط مع غلامـه سنـان بن وفرة لهـذه الفتنـة بـدءاً وانتهاءاً !!

وسمع الحديث زيد بن أرقم رضي الله عنه فنقله إلى رسول الله ﷺ بعد أن قال زيد لابن أُبي بن سلول : أمـا والله لئن رجعنـا إلى المـدينـة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذل ؟ أنت والله الذليل المنقص في قومك ، ومحمد ﷺ في عِزٍّ من الرحمن وقوَّةٍ من المسلمين .

ودخل عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ يستـأذنـه بقتل عبـد الله بن أُبيّ بن سلول بعـد حـديثـه هـذا ، وقـال رضي الله عنـه : أَومُرْ محمد بن مسلمة بقتله ، أو عباد بن بشر فليقتله . لقد أراد عمر أن يقتلـه أنصاري من المدينة ذاتها !

فقـال ﷺ : « كيف يـا عمر إذا تحـدث النـاس بـأن محمـداً يقتل أصحابه ؟ »[1] .

وشـاع الخبر ، ولم يكن للنـاس حـديث في ذلـك اليوم إلا ذلـك ، فرأى ﷺ ببعـد نظره ، أن يشغـل جنـده عن حـديث ابن أُبيّ بن سلول ، فإذا أخذ منهم التعب ناموا ، ولم يجدوا فرصة لتداول الحديث ، فأذن ﷺ بالرحيل ، وكانت ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرحل فيهـا لشدة الحر ، فارتحل الناس ، وسـار رسول الله ﷺ ، فجـاءه أُسيـد بن

---

(١) الاكتفـاء : جـ ١ ص ٢٤ / ب ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٦ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص ١٥٧ ، السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٠٢ .

حضير رضي الله عنه ، فحيّاه بتحية النبوّة وسلّم عليه ، وقال : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقال : يا نبي الله لقد رحلت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها[1] !

فقال ﷺ : « أما بلغك ما قال صاحبكم ؟ » .

أُسيد بن حضير : أي صاحب يا رسول الله ؟

قال ﷺ : « عبد الله بن أُبيّ بن سلول » .

أُسيد بن حضير : وما قال ؟

قال ﷺ : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل » .

أُسيد بن حضير : فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال أُسيد : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له بالخرز ليتوجوه ، ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودي ، فإنه ليرى أنك استلبت مُلْكاً[2] .

وحلف ابن أُبيّ بن سلول الأيمان كاذباً ما قال : « والذي أنزل

---

(١) كان ﷺ لا يرحل إلا إذا برد الوقت .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٥ / ١ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٩٤ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٦ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١١٩ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٣٢ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٠٠ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٨٤ ، السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٠٣ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٥٧ .

عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك وإن زيداً لكاذب » . لقد أقسم ابن أُبيّ كاذباً ، فأنزل عز وجل سورة المنافقين ، وصدَّق الله حديث زيد بن أرقم ، وكذَّب المنافقين ، ونزل بحق زيد بن أرقم : ﴿ وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾[1] ، فكان يقال لزيد بن أرقم رضي الله عنه : « ذو الأُذن الواعية » .

الابن البار الملتزم بإسلامه :

وجاء عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ بن سلول وقال : يا رسول الله إنه قد بلغني أنَّك تريد قتل أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرني أن أحمل لك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرَّ بوالده مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فمرني يا رسول الله ، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا .

يا رسول الله وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله فأدخل النار ، فعفوك أفضل ، ومنَّتك أعظم[2] .

---

(١) الحاقة : ١٢ .

(٢) ابن هشام : جـ ٣ ص ١٨٤ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٣ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٩٤ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٨ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٥٨ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٢٠ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٠١ ، السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٠٤ .

ولما سمع رسول الله ﷺ قول الابن البار بوالده والداً ، وبالإسلام عقيدة ومنهجاً حياتياً في قلبه وروحه ، قال : « ما أردت قتله ، ولا أمرت به ، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا » .

فقال عبد الله : يا رسول الله ، إن أبي كان أهل هذه المدينة اتفقوا على أن يتوجوه عليهم ، فجاء الله عز وجل بك فوضعه ورفعنا بك .

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى وادي العقيق[1] تقدم عبد الله الابن وجعل يتصفَّح الركاب ، حتى مرّ أبوه ، فأناخ به ، ثم وطئ على يد راحلته ، فقال أبوه : ما تريد يا لكع ؟ فقال : والله لا تدخل حتى تقر أنك الذليل ، وأنَّ رسول الله ﷺ العزيز وحتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، ولتعلم أيضاً الأعز من الأذل ، أنت أو رسول الله ﷺ !

وفي رواية : والله لا تدخلها ـ يعني المدينة ـ حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، وتعلم اليوم مَن الأعز مِنَ الأذل ، وحتى تقول : رسول الله ﷺ الأعز وأنت الأذل . فقال له أبوه : أنت من بين الناس ؟ قال الإبن : نعم ، فلما رأى منه الجد قال : أشهد أن العِزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وصار يقول : لأنا أذل من الصبيان ، لأنا أذل من النساء . حتى قال رسول الله ﷺ لابنه عبد الله : « خَلِّ عن أبيك » ،

---

(١) وفي السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٠٠ : نزل على ماء بالحجاز فُوَيْق النَّقيع ، يقال له بَقْعاء ، وكذلك بابن هشام : جـ ٣ ص ١٨٤ ، وفي الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٧ : نَقْعاء .

فخلّى عنه ، وقال ﷺ لعبد الله الابن : « جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيراً » .

وأخذ قوم عبد الله بن أُبي بن سلول يعنفونه ، فقال ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ؟! أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له آنُفٌ[1] لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته » ، فقال عمر رضي الله عنه : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري[2] .

جاء في « الروض الأُنف » : وفي هذا الخبر برهان نيِّر من أعلام النبوّة ، فإن العرب كانت أشد خلق الله حمية وتعصُّباً ، فبلغ الإيمان منهم ونور اليقين من قلوبهم إلى أن يرغب الرجل منهم في قتل أبيه وولده تقرباً إلى الله ، وتزلُّفاً إلى رسوله ، مع أن الرسول ﷺ أبعد الناس نسباً عنهم . وما تأخر إسلام قومه وبني عمه وسبق إلى الإيمان به الأباعد إلا لحكمة عظيمة ، إذ لو بادر أهله وأقربوه إلى الإيمان به لقيل قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصَّبوا له ، فلما بادر إليه الأباعد ، وقاتلوا على حُبِّه من كان منهم أو من غيرهم ، عُلِمَ أن ذلك عن بصيرة صادقة ، ويقين قد تغلغل في قلوبهم ، ورهبة من الله أزالت صفة قد

---

(١) آنفٌ جمع أنْف « المنخر » ، ويجمع أيضاً على : آناف وأُنوف ، لسان العرب : جـ ٩ ص ١٢ .

(٢) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٥٨ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٠٨ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ٩٥ ، السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٠٧ .

كانت ثبتت ولزمت في نفوسهم من أخلاق الجاهلية ، لا يستطيع إزالتها إلا الذي فطر الفطرة الأُولى ، وهو القادر على ما يشاء ، وأما عبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول فكان من كتاب النبي ﷺ ، وكان اسمه حباب ، وبه كان يكنى أبوه ، فسمّاه رسول الله ﷺ عبد الله ، ومات شهيداً باليمامة رضي الله عنه[1] .

ولما نزلت سورة المنافقين توضّح الأمر ، صار قوم عبد الله بن أُبيّ يعاتبونه ويعنفونه ، وقالوا له : اذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك ، فلوى رأسه ، ثم قال : أمرتموني أن أُومن فآمنت ، وأمرتموني أن أُعطي زكاة أموالي فأعطيته ، فما بقي إلا أن أسجد لمحمد ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَإذا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ ، سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ استَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[2] .

﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعنا إلى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأَذَلَّ وللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُون ﴾[3] .



(١) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ١٨ .

(٢) المنافقون : ٥ و ٦ .

(٣) المنافقون : ٨ .

واختلاق الإفك أيضاً :

ولم يكتف ابن أُبيّ بن سلول بما قاله آنفاً ، بل اختلق قصة الإفك أيضاً في هذه الغزوة ، وهي كذب وافتراء يضاف إلى كذبه السابق ، وبهتان أشاعه ولفّقه على عائشة الصدّيقة المبرّأة المطهّرة رضي الله عنها .

لقد روّج ابن أُبيّ وأشاع الكذب في العسكر ، فكان ينزل مع جماعته المنافقين مبتعدين من الناس يتداولون الإشاعة ، ويهيئون الافتراء .

عَجّل رسول الله ﷺ في عودته ، فأمر بالرحيل دون أن يعلم أحد من الركب بغياب عائشة لقضاء حاجتها ، وسقط عِقد لها وهي في طريقها فرجعت إليه تلتمسه فأبطأت ، لقد رفعوا هودجها وهم يظنون أنها فيه[1] ، ثم أسرعوا في السير ، وخلّفوها وراءهم .

عادت رضي الله عنها إلى مكان الركب الذي انطلق في ساعة لم يكن يرحل فيها ، فلم تجد أحداً ، فجلست في مكانها وهي على يقين بأنهم عائدون إليها لا محالة حين يفتقدونها ، ثم غلبها النوم فنامت ، وكان صفوان بن المُعَطّل وراء الركب يتابعه ليلتقط ما عسى أن يكونوا قد خلّفوه من متاع[2] ، فلما رأى عائشة عرفها ، فجعل

---

(١) ولم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، لأن السمن وكثرة اللحم لم يكن آنذاك بها رضي الله عنها ، لقد كانت خفيفة الوزن . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣٠٩ .

(٢) كان صفوان خلف الجيش ، لأنه كان على ساقة الجيش يتخلّف عنه ليلتقط ما يسقط من متاع .

يسترجع قائلاً : ﴿ إنَّا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ، فاستيقظت ، فقدم لها بعيره فركبت ، وانطلق يقوده بها ، حتى دخل إلى المدينة وضح النهار عند الظهيرة[1] .

فلما رآها ابن أُبي بن سلول رأس المنافقين قال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها ، فجر بها ورب الكعبة ، ما برئت منه وما برئ منها ، والله ما نجت منه ولانجا منها . وروَّج المنافقون الإشاعة ، وأرجفت المدينة كلها بالإفك[2] .

إن الذي جرى أمر طبيعي عادي ، سيدة فاتها الركب دون علم منها ولا منهم ، فأدركها تابع الركب فأجارها حتى ردَّها إلى مأمنها ، فكان صنيعه معها صنيع الرجل الذي يؤدي واجبه ، فإن لم يكن واجباً فإنه مروءة ينبعث إلى فعلها الرجل الكريم من تلقاء نفسه ، ولا مجال للشك في الحالتين ، لأنه أمر طبيعي تمليه ظروف البيئة وطبيعتها .

أما هاجرت أُم سلمة من مكة إلى المدينة وليس معها إلا وليدها الطفل ، فلما رآها عثمان بن طلحة على هذه الحال أَبت عليه المروءة

---

(١) « حتى أتينا الجيش في نحر الظهيرة ، أي وسطها ، وهو بلوغ الشمس منتهاها من الارتفاع » . السيرة الحلبية : جـ ٢ ص ٣١٠ . واعتمدنا هنا كتاب (صور من حياة الرسول) ص ٤٠٨ وما بعدها بتصرف وإضافات .

(٢) الإفْكُ : الكذب ، ويقال أَفَكَ : كذب ، وأَفَكَ الناسَ : كذبهم وحدَّثهم بالباطل ، والمراد هنا في حديث عائشة رضي الله عنها ما كُذِب عليها بما رُميت به ، لسان العرب : جـ ١٠ ص ٣٩٠ .

ـ وهو مشرك ـ أن يتركها وحدها في هذه المتاهة ، فاصطحبها في رحلته حتى أوصلها إلى المدينة ثم عاد ؟ فما تحدث أحد من أهل المدينة في شأنها ولا في شأن عثمان بن طلحة ، رغم ما كان من تلك الرحلة من سعة الوقت وتعدد الفرص لمن أراد أن ينتهز فرصة ، ذلك أن الشهامة العربية تقضي على الرجل أن يحمي المرأة حين لا حامي لها ، ولو كانت من رعاع الناس ، فكيف وعائشة زوج رسول الله ﷺ ، ومع مَنْ ؟ مع صفوان الرجل العربي في شهامته ومروءته وسمو نفسه ، والمسلم المؤمن الذي ينهاه دينه لا عن الفحشاء والمنكر ، بل عما دون ذلك بكثير .

لكن الحقد والحسد والضغينة أكلت قلب ابن أُبيّ بن سلول وملأته غيظاً على الإسلام ورسوله ، ودفعت به إلى هذا الموقف الدنيء . لقد عاد وهو صاحب المواقف المعروفة مَغِيظاً مُحْنقاً ، بسبب إخفاق مكيدته التي دفع لها غلامه سنان بن وفرة ، وبسبب ما لاقاه بعدها من صَغَار ، وما أصابه بسببها من مذلَّة وهوان حتى من ابنه ، فدخل المدينة ونفسه تفور من الغيظ على رسول الله ﷺ ، فجعل يتلمَّس فرصة ينفس بها عن نفسه ، فما كاد يرى عائشة وصفوان عائِدَيْن حتى وجدها أحسن فرصة يطلق فيها الوشاية ويشعل الفتنة التي عجز عن إشعالها بين المهاجرين والأنصار ، فراح يطلق لسانه بالإفك ليحقِّق :

١ ـ الوقيعة بين رسول الله ﷺ وأقرب المؤمنين إليه أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

٢ ـ وقد يفلح في تشكيك المسلمين في كرامة نبيِّهم .

٣ ـ أو قد يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شغباً يقعون فيه ، عصبيَّةً له ، وأنفةً من هوانه .

٤ ـ لقد أراد فتنة بين المسلمين بشكل عام ، يعوِّض بها ما فاته من فتنته التي أثارها غلامه سنان بن فروة .

وهذه الفرية التي روَّج لها المنافقون ، لا تجوز حتى على امرأة ساقطة ، إذ لا يمكن لامرأة ـ مهما يكن من حمقها وسفاهتها ـ أن تجاهر بأمرها هذه المجاهرة ، وأن تأتي هكذا في وضح النهار ومعها رفيقها ، فتكشف ما خفي من مستور أمرها ، وتعلن على أعين الناس أنها قد أتت ما أتت ، وفعلت ما فعلت ، فإن في غريزة المرأة ـ مهما سقطت ـ نزوعاً طبيعياً إلى التجمُّل للناس ، والظهور أمامهم في أكمل مظهر تستطيعه ، حتى لا يزهد الناس فيها ـ على الأقل ـ إذا هي أعلنت بحقيقتها .

فهل يكون من الجائز أن تجاهر بمثل هذا عائشة أم المؤمنين والمثل الأعلى للمؤمنات ؟

إنها فرية ساقطة ، وكذبة لا يقرها عقل ولا دين ولا ذوق ، ولا يقبلها منطق البيئة ، ولا ظروف المجتمع ، فلو أن كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخذ بالتهمة في دينها وعرضها ، لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال .

من أجل هذا لم يكتف القرآن الكريم بتكذيب الفرية ، ونفي

التهمة عن عائشة ، بل عالج الموقف من نواحيه جميعها ، علاج الحكمة البالغة التي تصون للأعراض الطاهرة حرمتها ، وتقطع على الألسنة الكاذبة طريقها ، وتحفظ للمجتمع الإسلامي سمعته وكرامته .

☆ ☆ ☆

☆ تقول عائشة رضي الله عنها : لما تكلَّم الناس في الإفك ، رأيت في منامي فتىً ، فقالَ : ما لَكِ ؟ قلت : حزينة مما ذكر الناس . فقال : ادعي بهذه يفرِّج الله عنك ، فقلت : وما هي ؟ قال : قولي : « يا سابغ النِّعم ، ويا دافع النِّقم ، ويا فارج الغمم ، ويا كاشف الظُّلَم ، ويا أعدل مَنْ حَكَم ، ويا حسيب من ظَلِم ، ويا أوّل بلا بداية ، ويا آخر بلا نهاية ، اجعل لي من أمري فَرَجاً ومخرجاً » ، قالت رضي الله عنها : فقلت ذلك فأنزل الله فَرَجي[1] : ﴿ إنَّ الَّذينَ جَاؤُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امرئٍ مِنْهُمْ ما اكتَسَبَ مِنَ الإثمِ وَالَّذي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، لَوْلا إذْ سَمِعْتُموهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وقالوا هٰذا إفْكٌ مُبِينٌ ﴾[2] .

---

(١) السيرة الحلبية ، جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٢) نزلت هذه الآيات من سورة النور « وهي ١١ و ١٢ ، ومابعدها » بعد أن قررت الآيات الأُولى من السورة ذاتها : أن الزنا جريمة دنسة لا يمكن أن يأتيها المؤمن ، وأن الذين يتكلمون في أعراض الناس بغير علم يعاقَبُون وتهدر كرامتهم ، وأنه على المؤمنين أن يُحْسِنوا الظن بإخوانهم ، وألاّ يندفعوا وراء الأراجيف لقداسة الأعراض .

☆ وقال عمر رضي الله عنه : أنا أقطع بكذب المنافقين ، وأخذت براءة عائشة رضي الله عنها من الذُّباب ، لأن الذباب لا يقرب بدنك - والخطاب لرسول الله ﷺ - فإذا كان الله تعالى صان بدنك من أن يخالطه الذباب لمخالطته بالقاذورات ، فكيف أهلك ؟

☆ وقال عثمان رضي الله عنه : أخذت براءة عائشة من ظِلِّك ، إني رأيت الله تعالى صان ظلك أن يقع على الأرض لئلا يوطأ بالأقدام ، فإن صان الله ظلَّك ، فكيف بأهلك ؟

☆ وقال علي رضي الله عنه : أخذت براءة عائشة من شيء هو أنّا صلينا خلفك وأنت تصلي بنعليك ، ثم إنك خلعت إحدى نعليك فقلنا : ليكون ذلك سُنَّة لنا ؟ قلت : لا إن جبريل عليه السَّلام أخبرني أن في تلك النعل نجاسة ، فإذا كان لا تكون النجاسة بنعليك ، فكيف تكون بأهلك ؟

فسرَّ ﷺ بهذه الآراء[1] .

وأُقيم الحدُّ على من أُقيم عليه ، كمسطح[2] وحسان بن ثابت ، بعد

---

(١) ورد على هامش الاكتفاء ، جـ ١ ص ١٢٦ : « ما زنت امرأة نبي قط » ، وهل من صفة لنبيٍّ لم نجدها في محمد بن عبد الله ﷺ ! ؟ .

(٢) مسطح بن أثاثة : شهد بدراً ، وكان ممن خاض في الإفك ، فجلده رسول الله ﷺ فيمن جلد في ذلك ، وكان أبو بكر ينفق عليه ، فأقسم أن لا ينفق عليه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُم والسَّعَةِ . . ﴾ الآية : [النور : ٢٢] فعفى وعاد لينفق عليه . توفي مسطح سنة أربع وثلاثين ، وهو ابن ست وخمسين سنة ، أسد الغابة ، جـ ٥ ص ١٥٦ .

أن برّأ الله تعالى عائشة رضي الله عنها مما رماها المنافقون به ، وجعل حصانتها قرآناً يتلى إلى يوم الدين .

لقد انقاد رعاع الأُمة وراء ابن أبيّ بن سلول ، الذي كان يوجِّه المنافقين لما تقتضيه مصلحته السياسية ، ومنفعته الشخصية ، على أنه يسهل التغلُّب على هؤلاء الرعاع عندما تقوم في وجههم قوة متينة البنيان ، متماسكة الأطراف ، عالية الأسوار .

لطيفةٌ : منع ابن المقري عن ولده نفقة تأديباً له على أمر وقع منه ، فكتب إلى والده يقول :

لا تَقْطَعَنَّ عَادَةَ بِرٍّ ولا ... تَجْعَل عقابَ المرءِ في رِزْقِهِ
فَإنَّ أَمْرَ الإفكِ مِنْ مِسْطَحٍ ... يَحُطُّ أَمْرَ النَّجمِ مِنْ أُفْقِهِ
وَقَدْ جَرَى مِنْهُ الذي قَدْ جَرَى ... وعُوتِبَ الصدِّيقُ في حقِّهِ

فكتب إليه والده يقول :

قَدْ يمْنَعُ المضطرُ من ميتة ... إذا عَصَى بالسيرِ في طُرقِهِ
لأنَّه يقوى على تَوْبَةٍ ... تكون إيصالاً إلى رزقه
لَوْ لَمْ يَتُب مِسْطَحُ مِنْ ذَنْبِهِ ... ماعُوتِبَ الصدِّيقُ في حقِّهِ[1]

☆ ☆ ☆

(١) السيرة النبوية والآثار المحمدية ، جـ ٢ ص ١١٦ .



غزوة الحديبية

ذي القعدة
سنة ست هجرية



غزوة الحديبية

ذي القعدة

سنة ست هجرية

☆ خرج رسول الله ﷺ إلى مكة معتمراً ، فجعل بذلك قريشاً في أحرج موقف ، فهي بين الرفض والقبول سيّان ! .

أخبر رسول الله ﷺ أصحابه أنه رأى في النوم أنه دخل مكة ، هو وأصحابه آمنين محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين[١] ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه ، وطاف مع أصحابه واعتمر . وأخبر بذلك أصحابه ففرحوا ، ثم أعلمهم أنه يريد الخروج للعمرة فتجهَّز المسلمون للسفر ، وخرج ﷺ معتمراً ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربه ، وليعلموا أنه ﷺ إنما خرج زائراً للبيت ، ومعظِّماً له[٢] .

وكانت تلبيته ﷺ : لبيك اللّهم لبيك ، لاشريك لك لبيك ، إنّ الحمد والنعمة لك والمُلْك ، لا شريك لك .

واستعمل على المدينة عبد الله بن أُم مكتوم على الصلاة .

---

(١) أي بعضهم محلق وبعضهم مقصّر .

(٢) كان إحرامه ﷺ بالعمرة من ذي الحليفة ، وأحرم معه معظم أصحابه ، وأحرم بعضهم بالجحفة .

ونُمَيلة بن عبد الله الليثي ـ أو أبو رهم كلثوم بن الحصين ـ حافظاً للمدينة .

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي ممن أسلم من الأعراب من أسلم وغِفَار ومُزَينة وجُهينة .

وتخلَّف بعض الأعراب المنافقين وقالوا : أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ فتعللوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم ، وأن ليس لهم من يقوم بذلك ، فأنزل الله عز وجل تكذيبهم في اعتذارهم : ﴿ سَيَقولُ لَكَ الُمخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرابِ شَغَلَتْنَا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِر لَنَا يَقُولونَ بِأَلْسِنَتِهِم ما لَيْسَ في قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيئاً إنْ أَرادَ بِكُم ضَرّاً أو أرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبيراً ﴾[1] .

لقد تثاقل الأعراب ظناً منهم أنها مغامرة يقوم بها رسول الله ﷺ ومن معه ، ولا بد وأن قريشاً سوف تنتهزها فرصة للقضاء عليهم ، ولن يصدَّها عن ذلك الشهر الحرام ـ ذي القعدة ـ ولا البيت العتيق ، فقد لجَّت في الخصومة ، وبلغت فيها إلى الشوط الأبعد ، الذي ليس بعده صلح ولا مسالمة ، واعتبروا أن هذه سفرة بلا عودة ، وعلى عادة الأعراب من الحذر ، أبطأوا فلم يستجيبوا لدعوة رسول الله ﷺ : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالُمؤْمِنُونَ إلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ

---

(١) سورة الفتح : ١١ .

ذلـكَ في قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمَـاً بُـوراً ، وَمَنْ لَمْ يُـؤْمِنْ باللهِ وَرَسُولِـهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً ﴾[١] .

وغـادر رسـول الله ﷺ المـدينـة بعـد أن اغتسـل ببيتــه ، ولبس ثوبين ، وركب راحلته القصوى ، وخرج معـه أُم سَلَمـة وأُم عمـارة وأُم منيع ، وأُم عامر الأشهلية ، ومعه المهـاجرون والأنصـار ، ومن لحق بهم من العرب ، وسـاق معـه الهـدي سبعين بـدنـة ، وأَشْعَرَ رسول الله ﷺ بعضها وأَشْعَرَ المسلمون بُدْنَهم وقلَّدوها[٢] ليُعْلَم أنهـا هَـدْي فيكفّ النـاس عنها .

وبذلـك قطع رسول الله ﷺ على قريش كل حُجَّة عنـدمـا جلل الهدي وأشعره وقلَّده . وعندما حمل المسلمون سِلاحَ المسـافر فقـط ، فهم يريـدون العمرة ليس غير ، لا يبغـون إلا أن يـؤدُّوا منـاسكهم . لقَـد جعــل رســول الله ﷺ قريشــاً في أحرج مــوقف ، فهي بين الرفض والقبول سيَّـان . فـالرفض يجعلهـا في أعين العرب عـامـة ، وحلفـائهـا خاصة[٣] ، تصدُّ عن البيت الحرام ، وهي بقتالـه ستحل حرمـات الشهر

---

(١) سورة الفتح : ١٢ ـ ١٣ .

(٢) ثم دعـا ﷺ بـالبُدْن فجُلّلت ثم أشْعَرهـا في الشق الأيمن ثم قلّدهـا ، وأشعر أصحـابُـه ، وهي سبعون بَدَنة فيهـا جَمَل لأبي سفيـان غنمـه يوم بـدر ، وأَشْعَرَهـا : ضرب صفحـة السَّنـام اليمنى بحديدة فلطخها بالدم إشعاراً بـأنـه أُهـدي ، وقلَّـدهـا : علَّق في أعنـاقهـا شيئـاً ـ كقطعـة من الجلد ـ ليعلم أنها هدي ، وكانت هذه عادة العرب فيما يهـدون إلى البيت الحرام من الـذبـائح ، « الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي : جـ ٢ ص ٦٩٧ » .

(٣) وسنرى بالتفصيل موقف الحليس عندما قال لقريش : أما والله ما حالفناكم على أن تصدُّوا عن =

الحرام خارقة حرمة الأشهر الحرم ، وسيعود ذلك على سمعتها ومكانتها وكرامتها بين العرب بالوبال ، وإن قبلت فالمشكلة أكبر والموقف أعظم وأحرج !

كان المسلمون ألفاً وأربعمئة[1] ، ليس معهم سلاح إلا السيوف في القِرَب ، ولا دروع عليهم ، مع مئتي فرس .

قال عمر رضي الله عنه : أتخشى يا رسول الله من أبي سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب عدتها ؟

رسول الله ﷺ : « لست أُحب أن أحمل السلاح معتمراً » .



☆ بشر بن سفيان الخزاعي عيناً :

وأرسل ﷺ بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له إلى مكة ، وفي عُسْفان عاد بشر وقال : يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك

= بيت الله من جاءه معظماً لحرمته ، مؤدياً لحقه ، والذي نفسي بيده لتُخلَنَّ بينه وبين ما جاء له أو لأنْفِرَنَّ بالأحابيش نفرةَ رجل واحد ، كما منع الحليس قريشاً من قتل خراش بن أمية الخزاعي بعد عقر جمله في مكة ، كما سير تفصيله .

(1) الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٣٥ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٩٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٦٥ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٢١ ، ابن سعد : جـ ١ ص ١٧٩ و جـ ٢ ص ٩٨ . وفي السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣١٣ : « قال جابر بن عبد الله : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مئة » .

واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش[1] ، وأجلبت ثقيف معهم ، ومعهم النساء والصبيـان ، ومعهم العوذ المطـافيل[2] ، خرجوا بنسـائهم ومعهن أولادهن ليكـون أدعى لعـدم الفرار ، ولبسـوا جلـود النمر مظهرين العداوة والحقد ، ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله أن لا يـدخلها عليهم عنوة أبداً .

وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كُرَاع الغَميم[3] بمئتي فرس .

فأمر ﷺ عبّاد بن بشر فتقدم بخيله فأقام بإزائه[4] .

وجعلت قريش على الجبال عيوناً يراقبون تحركات المسلمين[5] .

ولمـا علم رسـول الله ﷺ أن قريشـاً تريـد منعـه عن البيت الحرام

---

(1) الأحـابيش : من انضم إلى قريش وليس منهـا . وحُبْشيّ : جبل بـأسفل مكـة يقـال بـه سمي أحابيش قريش ، ذلك أن بني المصطلق وبني الهَوْن بن خزيمة اجتمعوا عنده فحالفوا قريشاً ، وتحالفوا بالله إنّا ليد على غيرنـا مـا سَجَـا لَيْلٌ ووضح نهار ، ومـا أرسى حُبْشيٌّ مكانـه ، فسمُّوا أحابيش قريش باسم الجبل ، لسان العرب : جـ ٦ ص ٢٧٨ .

(2) العوذ جمع عائذ وهي الناقة التي معها ولدها ، يريـد أنهم خرجوا بـالنوق ذوات اللبن ليتزوّدوا ألبانها ولا يرجعوا حتى يناجزوا محمداً وأصحـابـه ، والعوذ المطـافيل كنـايـة أيضاً عن النسـاء معهن أطفـالهن ، أي خرجوا بنسـائهم ومعهن أولادهن ليكـون أدعى لعـدم الفرار ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٢٢ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٣٣ .

(3) كُرَاع الغَميم : واد أمام عُسْفان ، أو جبل أسود في طرف الحرّة ، والكُرَاع : مـا سـال من أنف الجبل أو الحرة ، معجم البلدان : جـ ٤ ص ٤٤٣ .

(4) السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٩٥ .

(5) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ٩٥ .

قال : « أشيروا علي أيها الناس ، أتريدون أن نَؤُمَّ البيت فمن صدَّنا عنه قاتلناه ؟ » ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً ، فتوجّه له فمن صدَّنا عنه قاتلناه .

وحزن رسول الله ﷺ من موقف قريش ومبالغتها في الخصومة ، على الرغم ما بينها وبينه من لحمة دم والقرابة والرحم ، لقد كان خليقاً أن يجعلها تقاربه وتنتصر له ، بدل عنف الخصومة التي أعمتها عن الحكمة ، وأبعدتها عن الحلم .

قال ﷺ عندها : « فامضوا على اسم الله » فساروا ، ثم قال : « يا ويح قريش نهكتهم الحرب[1] ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين[2] ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أُجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفر هذه السالفة[3] » .

ثم قال ﷺ : « هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم

---

(١) نهكتهم الحرب : أضعفتهم ، وفي رواية : أكلتهم الحرب .

(٢) وافرين : كاملين .

(٣) السالفة : صفحة العنق ، وهو كناية عن القتل ، وفي لسان العرب : جـ ٩ ص ١٥٩ : « السالفة: أعلى العنق، وقيل ناحية مُقَدَّم العنق » .

التي هم بها ؟ » ، فقال رجل من أسلم[1] : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقاً وَعْراً أَجْرَل بين شِعاب ، فلما خرجوا منه وقد شقَّ عليهم ذلك ، وأفضوا إلى أرض سهلة ، قال رسول الله ﷺ للناس : « قولوا نستغفر الله ونتوب إليه » ، فقالوا ذلك ، فقال ﷺ : « والله إنها ـ أي قول استغفر الله . . . ـ للحطة التي عُرِضت على بني إسرائيل فلم يقولوها[2] » . ثم أمر رسول الله ﷺ الناس أن يسلكوا طريقاً تخرجهم على مهبط الحديبية من أسفل مكة ، فسلكوا ثنيَّة المُرَار[3] حيث بركت ناقته ﷺ ، فقال الناس : حَلْ حَلْ[4] ، فألحت ـ أي تمادت واستمرت على عدم القيام ـ فقالوا : خلأت القصوى[5] ، بعد أن زجروها فأبت ، فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت ، وما هو لها بخلق ، ما ذاك لها بعادة ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة[6] ، والذي نفس محمد

---

(١) وهو : ناجية بن جندب الأسلمي ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٣٤ .

(٢) حطة: اللّهم حط عنا ذنوبنا ، أي طلب المغفرة ، فقال اليهود استهزاء وجراءة على الله تعالى : حنطة حبة حمراء فيها شعيرة سوداء ، الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٧ / ب ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٢٣ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ١٩٦ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣١٤ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١١٤ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٩٨ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٣ .

(٣) ثنيّة المُرَار : مهبط الحديبية من أسفل مكة ، السيرة النبوية لابن كثير ، جـ ٣ ص ٣١٤ .

(٤) حَلْ حَلْ : كلمة تقال للناقة إذا تركت السير .

(٥) القصوى : اسم ناقة رسول الله ﷺ ، وخلأت : أي حرنت ، يقال : خلأت الناقة ، وألح الجمل ، وحرن الفرس .

(٦) أي منعها الله من دخول مكة قهراً .

بيده ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خصلة يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ، وفيها تعظيم حرمات الله تعالى إلا أعطيتهم إياها[1] » ثم زجرها ﷺ ، فقامت ، فرجع ونزل الحديبية[2] .

وفي الحديبية قال الناس : يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه! فأخرج ﷺ سهماً من كنانته ، فأعطاه ناجية بن جندب[3] ـ سائق بدن رسول الله ﷺ ـ لينزل في قليب جاف ليغرزه في جوفه . فنزل ناجية فغرزه في جوفه فجاش[4] حتى ضرب الناس عليه بعطن[5] .

يقول ناجية بن جندب بعد أن غرز سهم رسول الله ﷺ :

---

(١) أي من ترك القتال في الحرم ، والكف عن إراقة الدم في الأشهر الحرم .

(٢) الحُدَيْبِيَةُ : بالتخفيف عند أهل الحجاز ، وأهل العراق يشددون الياء « الحُدَيبيَّة » ، وهي قرية متوسطة ليست كبيرة ، سُمِّيت بشجرة حدباء كانت هناك ، أو سميت ببئر ، وبين الحديبية ومكة مرحلة واحدة ، بعضها في الحل وبعضها في الحرم ، معجم البلدان : جـ ٢ ص ٢٢٩ ، ولأخبار الحديبية راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٧ / ب ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٩٦ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٢٠ ، ابن خلدون : جـ ٢ ص ٣٤ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٣٥ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣١٢ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١١٣ ، الوفا بأحوال المصطفى : جـ ٢ ص ٦٩٧ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٣٣ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٠ .

(٣) استعمله ﷺ على هَدْيه حين توجه إلى الحديبية ، فصار يسير بالهدي أمامه ﷺ يطلب الرَّعي في الشجر ، ومعه أربعة فتيان من أَسْلَم .

(٤) علا وارتفع بالرواء ، وكان الماء في الآبار يتبرض ماؤها تبرضاً ، من البرض : الماء الذي يقطر قليلاً قليلاً ، والبارض من النبات : الذي كأنه يقطر من الري والنعمة .

(٥) أي حتى رووا ورويت إبلهم حتى بركت حول الماء لأن عطن الإبل مباركها .

مـا كـدت أخرج منـه حتى يغمرني المـاء ، وفـارت كما يفور القـدر حتى طمت واستـوت بشفيرهـا يغترفـون من جـوانبهـا ، حتى نهلـوا عن آخرهم[١] ، وعلى البئر نفر من المنافقين منهم عبـد الله بن أُبيّ بن سلول ، فقال له أوس بن خولي رضي الله عنه : ويحك يا أبـا الحبـاب ، مـا آن لك تبصر ما أنت عليه ، أبعد هذا شيء ؟ فقـال ابن أُبي بن سلول : إني رأيت مثل هـذا ، فقـال لـه أوس رضي الله عنـه : قبّحـك الله ، وقبـح رأيك .

وأقبل عبـد الله بن أُبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ ، فقـال لـه : « يا أبا الحباب ، كيف رأيت ما رأيت اليوم ؟ » ، فقال : مـا رأيت مثله قط ، قال ﷺ : « فَلِمَ قلت ما قلت ؟ » ، فقال : يـا رسول الله استغفر لي ، وقال ابنه عبـد الله : يـا رسول الله استغفر لـه ، فـاستغفر له .

وعبد الله بن أُبيّ بن سلول في موقفه هذا تنطبق الآيـات الكريمـة التالية عليـه تمـامـاً : ﴿ وَإِنْ يَرَوا آيَـةً يُعْرِضُوا وَيَقُولوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ ، وَكَـذَّبوا واتَّبَعُوا أَهْـوَاءَهُمْ وَكُـلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ ، وَلَقَـد جـاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَـاء ما فيهِ مُزْدَجَرٌ ، حِكْمَـةٌ بـالِغَـةٌ فَمَـا تُغْنِ النُّـذُر ﴾[٢] ، ﴿ وَإذا ذُكِّروا لا يَـذْكُرُونَ ، وَإذا رَأَوا آيَـةً يَسْتَسْخِرونَ ، وَقَـالـوا إنْ هـذا إلاّ سِحْرٌ

(١) ولما ارتحلوا أُخِذَ السَّهمُ فجف الماء كأن لم يكن هناك شيء .

(٢) سورة القمر ، ٢ ـ ٥ .

مُبينٌ ﴾[1] ، ﴿ أولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وأُولئِكَ هُمُ الغَافِلُون ، لا جَرَمَ أَنَّهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرون ﴾[2] .

وذكر ابن إسحاق أن جارية من الأنصار جاءت البئر وناجية أسفله يميح[3] ، فقالت :

يا أيها المائحُ دَلْوي دُونكا ... إنّي رأيتُ النَّاسَ يحمدونكا
يُثنونَ خَيْراً وَيُمَجِّدونَكا

فأجابها ناجية بن جندب :

قَدْ عَلِمَتْ جارِيَةٌ يَمَانِيَهْ ... أنّي أنا المائِحُ واسمي ناجِيَهْ
وطَعْنَةٍ ذاتِ رَشاشٍ وَاهِيَهْ[4] ... طَعَنْتُها عندَ[5] صدورِ العادِيَهْ[6]

☆ ☆ ☆

---

(1) سورة الصافات ، ١٣ ـ ١٥ .
(2) سورة النحل : ١٠٨ ـ ١٠٩ .
(3) يميح : المَيْحُ : أن يدخل البئر فيملأ الدلو . لسان العرب : جـ ٢ ص ٦٠٨ . والميح من البئر كان قبل أن تفور بالماء حتى بلغ شفيرها .
(4) الواهية : الواسعة الشق .
(5) أو « تحت » كما في بعض المراجع .
(6) العادية : القوم الدين يعدون ويسرعون في العدو ، راجع الخبر والأبيات في : البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٦٥ و ١٦٦ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص٣١٥ ، الروض الأنف ، جـ ٤ ص ٣٤ ، ابن هشام ، جـ ٣ ص١٩٩ ، الطبري ، جـ ٢ ص ٦٢٥ ، السيرة الحلبية ، جـ ٣ ص ١٤ .

ثلاث سفارات
مهدت لعقد الصلح

« يـــا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكـه ، وقيصر في ملكـه ، والنجاشي في ملكه ، والله مـا رأيت ملكاً في قـومـه قـط مثـل محمـد في أصحـابـه ، ولقـد رأيت قـومـاً لا يُسْلِمُـونَـه لشيء أبداً ، فروا رأيكم فـإنـه عرض عليكم رشـداً فـاقبلـوا ما عرض عليكم ، فإني لكم ناصح ، مع أني أخاف أن لا تُنْصَروا عليه » .

« عروة بن مسعود الثقفي »

١ ـ بُدَيل بن وَرْقاء الخُزَاعي :

وأقبل بُدَيل بن وَرْقاء سيـد خزاعـة[1] ، وقـال لرسول الله ﷺ : جئناك من عند قومك كعب بن لؤي ، وعامر بن لؤي ، قـد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم معهم العوذ المطـافيل والنسـاء والصبيـان ،

(١) بُدَيل بن وَرْقَاء ، سيد قومه خزاعة ، قدم مع ركب من خزاعة إلى رسول الله ﷺ ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها لا يخفون عليه ﷺ شيئاً ، يخبرونـه وهو بـالمدينـة ، وكانت قريش ربما تفطن لذلك ، وأسلم بُدَيل يوم الفتح ، السيرة الحلبيـة : جـ ٢ ص ١٤ ، السيرة النبويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٣١٥ .

يقسمون بالله لا يخلّون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراؤهم[1] ، ما الذي جاء بك ؟

فقال ﷺ لِبُدَيل : « إنا لم نأتِ لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإنَّ قريشاً قد نهكَتْهم الحرب وأضرَّت بهم ، فإن شاؤوا ماددناهم مُدَّة ويُخَلُّوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلاَّ فقد جَمُّوا[2] ، وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأُقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو ليُنَفِّذنّ الله أمره » .

لقد علم بُدَيل أن رسول الله ﷺ ومن معه ، لم يأتوا يريدون حرباً ، وإنما جاؤوا زائرين للبيت ، معظِّمين لحرمته . فقال بُدَيل : سأُبلغهم ذلك . فانطلق حتى أتى قريشاً ، فقال : إنا جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعرض عليكم فعلنا ، فقال سفهاء قريش : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء . وقال ذو الرأي : هاتِ ما سمعته . فحدَّثهم بُدَيل بما قاله ﷺ ، وقال : يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ، وإن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ٩٦ .

(٢) الجَمُّ والجَمَمُ : الكثير من كل شيء ، والجَمُّ : الكثير المجتمع ، والجُمَّةُ : مجتمع شعر الرأس . وجاء فلان في جُمَّةٍ عظيمة : أي في جماعة . . ، وأَجَمَّ الفرس : تُرِك فلم يُركب ، فعفا من تعبه ، وذهب إعياؤه [وهذا هو المعنى المراد هنا] ، لسان العرب : جـ ١٢ ص ١٠٤ .

فقالت قريش : إن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا في جنوده معتمراً ، تسمع العرب أنه دخل علينا عنوة ، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ، والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف[1]

☆ ☆ ☆

٢ ـ مِكْرَز بن حفص بن الأَخْيَف :

ثم أرسلت قريش سفارتها الثانية ، أرسلت لرسول الله ﷺ مِكْرَز بن حفص بن الأَخْيَف ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ مقبلاً ، قال : « هذا الرجل غادر فاجر[2] » .

ثم قال له ﷺ مثل ما قال لبديل بن ورقاء . فرجع إلى قريش وأخبرهم بما قاله ﷺ .

☆ ☆ ☆

٣ ـ سَيِّد الأَحابيش « الحُلَيس بن علقمة » :

ثم أرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ سيد الأحابيش الحُلَيس بن علقمة مع عدد من حلفائه . وإرسال الحليس عمل ذكي قامت به قريش . فإن محمداً قد يسيء إلى الحليس ومن معه ـ حسب ظنها ـ

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٨ / ١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٦٦ .

(٢) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٥ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ١٩٩ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١١٥ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٠٦ .

لأنَّهم كانوا مع قريش في أُحد والخندق ، مما يثير الأحابيش ، وتضمن بذلك وقوفهم إلى جانبها أثناء قتال قريب متوقَّع . ولكن رسول الله ﷺ أحسن مقابلتهم ، وأقنعهم عملياً وبالحجة الدامغة بنيَّته السلمية ، وبذلك كسب رسول الله ﷺ سيد الأحابيش ومن معه إلى جانبه ، وألزمها بأن تدخل معه في مفاوضات وإلاّ انقلبوا عليها ، وأظهروها بمظهر المعتدي أمام حلفائها خاصة ، وأمام العرب كافة .

أقبل الحليس ومن معه ، فلما رأى رسول الله ﷺ الحليس قال : « إن هذا من قوم يتألَّهون[1] ، ويعظِّمون البُدْن والهَدْي ، ابعثوا الهَدْي في وجهه حتى يراه[2] » . فلما رأى الهدي يسيل عليه بقلائده من عرض الوادي قد أُشعر ، واستقبله الناس يلبُّون قد شعثوا ، صاح قائلاً : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت ، أَبى الله أن يحج لخم وجذام ونهد وحمير ويُمنع ابن عبد المطلب ؟ هلكت قريش وربِّ الكعبة ، إنما القوم أتوا عمَّاراً ، فقال ﷺ : « أَجل يا أخا بني كنانة » .

وعاد الحليس إلى قريش وقال : إني رأيت ما لا يحل منعه ، رأيت الهَدْي في قلائده قد أكل أوباره ، والرجال قد شعثوا ، فقالوا له : اجلس ، فإنما أنت أعرابي ، ولا علم لك ، إنما رأيت من محمد مكيدة . فغضب الحليس عند ذلك ، وقال : يا معشر قريش ، والله ما على

(١) يتألهون : يتعبدون ويعظِّمون أمر الله .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ٩٦ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٣٧ .

هذا حالفناكم ، ولا على هـذا عـاقـدنـاكم ، يُصَـدّ عن بيت الله من جـاء معظِّماً ، والـذي نفس الحليس بيـده لتخلنَّ بين محمـد ومـا جـاء لـه ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

لقـد كانوا يعظِّمون حرمـات الإحرام والحرم ، وينكرون على من يصدّ ذلك ، تمسُّكاً منهم ببقايا دين إبراهيم عليه الصلاة والسلام . فقالوا له : صَهْ[1] يا حليس ، حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[2] .

☆ ☆ ☆

المُفَاوِضُ العَاقِلُ :

عروة بن مسعود الثَّقفي

ثم أرسلت قريش لرسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي ، فقال لوجهاء قريش وعظمائها : يـا معشر قريش ، إني رأيت مـا يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التَّعنيف وسوء اللفظ .

عروة : أيْ قوم ، ألستم بالوالد[3] ؟

قالوا : بلى .

---

(١) صَـهْ القومَ وصَهْصَـهَ بهم زجرهم ، وصـه كلمـة زجر للسكوت ، وصـه كلمـة بنيت على السكون وهي اسم سمي به الفعل ومعناه اسكت ، لسان العرب : جـ ١٣ ص ٥١١ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٨ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٢٨ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٥ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) أي كل واحد منكم كالوالد لي ، وأنا كالولد له . وفي روايـة السيرة الحلبيـة : « وقـد عرفتم أنكم والد وأني ولد » ، وفي الروض الأُنف : « قد عرفتم أنكم والد » جـ ٤ ص ٣٤ .

عروة : أولست بالولد ؟ وأنتم حيٌّ قد ولدني[١]

قالوا : بلى .

عروة : فهل تتهمونني ؟

قالوا : لا ، ما أنت عندنا بِمُتَّهم .

عروة : ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ فلما بلّحوا[٢] علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟

قالوا : بلى .

فخرج عروة (الذي يدل حديثه على رجاحة عقل) ، حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم قال : يا محمد ، جمعت أوباش[٣] ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضّها[٤] بهم ، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، أي محمد ، أرأيت إن استأصلت قومك ، فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإن تكن الأُخرى[٥] ؟ إني والله لا أرى

---

(١) لأن أُمه سُبَيعَة بنت عبد شمس من قريش .

(٢) بَلَحَ عليَّ وبَلَّحَ أي لم أجد عنده شيئاً ، لسان العرب : جـ ٢ ص ٤١٤ ، والمراد هنا : أبوا .

(٣) الأَوْباش من الناس الأخلاط مثل الأوشاب ، وأوباش الناس الضُّروب المتفرّقين ، واحدهم وَبْشٌ ووَبَشٌ ، لسان العرب : جـ ٦ ص ٣٦٧ ، ويوضّح المعنى عبارة جاءت في السيرة الحلبية : « والله لا أرى وجوهاً ـ أي عظماء ـ وإني أرى أسراباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك » .

(٤) بيضتك : أصلك وعشيرتك ، لتفضها : لتكسرها .

(٥) أي وإن تكن الغلبة لقريش ؟.

وجوهاً ، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يَفرُّوا ويدعوك .

قال عروة هذا ، لأن العادة جرت أن الجيوش المجتمعة من قبائل عدّة ، لا يؤمن عليها الفرار ، بخلاف من كان من قبيلة واحدة ، فإنهم يأنفون الفرار عادة ، وما درى عروة أن مودَّة الإسلام أعظم من مودَّة القرابة ، وسيظهر له ذلك بعد قليل ، عندما رأى مبالغة المسلمين في تعظيم رسول الله ﷺ .

وسمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه ما قاله عروة : فقد كان جالساً خلف رسول الله ﷺ ، فشتم الصدِّيقُ عروةَ وقال : أنحن ننكشف عنه ؟ فقال عروة : من هذا يا محمد ؟ قال ﷺ : هذا ابن أبي قحافة[1] ، فقال عروة : لولا كانت يد لك عندي لم أُجزك بها لكافأتك بها[2] .

وتلك اليد التي كانت لأبي بكر عند عروة هي أن عروة استعان في حمل دية فأعانه الرجل بالواحد من الإبل ، والرجل بالاثنتين ، وأعانه الصدِّيق بعشرة من الإبل .

ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلِّمه[3] ، ولم

---

(١) لم يتعرّف عروة على أبي بكر فلعله كان يضع مغفراً أو لعله مقنعاً بثوب أو نحوه .

(٢) أي على هذه الكلمة التي خاطبني بها ، ولكن هذه بها .

(٣) وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه ، خاصة عند الملاطفة في الغالب ، إنما يصنع ذلك النظير بالنظير .

يمنعه ﷺ استمالةً وتأليفاً لـه ، والمغيرة بن شعبـة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد وعليه المغفر ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحيـة رسول الله ﷺ بـأسفل قراب السيف ، ويقول : اكفف يـدك عن مسّ لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك .

وما فعلـه المغيرة إجلال وتعظيم لرسول الله ﷺ ، ولم ينظر لمـا هو عادة العرب .

فيقول عروة للمغيرة : ويحـك مـا أفظّـك ومـا أغلظـك[1] ، ليت شعري من هذا الذي آذاني من بين أصحابك ؟ والله إني لا أُحسب عليكم ألأم منه ولا شر منزلة . فتبسّم ﷺ وقـال : هـذا ابن أخيـك المغيرة بن شعبة[2] . فقال عروة : يا غادر ، وهل غسلت غدرتـك ، ألست أسعى في غدرتك بالأمس ، والله ما غسلت عنك غدرتك بعكاظ إلا بـالأمس وقد أورثتنا العداوة[3] من ثقيف إلى آخر الدهر .

أراد عروة أن المغيرة قبل إسلامـه قتـل ثـلاثـة عشر رجـلاً من بني مالك من ثقيف ، وفد وإياهم مصر على المقوقس بهدايـا ، قـال المغيرة : وكنـا سـدنـة اللات ، واستشرت عمي عروة في مرافقتهم ، فـأشـار عليَّ

---

(١) أي ما أشد قولك .

(٢) لأن عروة كان عم والد المغيرة ، يقول له يا عم ، لأن كل قريب من جهة الأب يقال له عم .

(٣) الطبري : جـ ٢ ص ٦٢٧ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١١٦ ، الكامـل في التـاريـخ : جـ ٢ ص١٣٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٧٤ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٣٥ .

بعدم ذلك ، فلم أطع رأيه . فأنزلنا المقوقس في كنيسة للضيافة ، ثم أدخلنا عليه فقدموا الهدية له ، فاستخبر كبير القوم عني فقال : ليس منا ، بل من الأحلاف ، فكنت أهون القوم عليه فأكرمهم ، وقصَّر في حقي ، فلما خرجوا لم يعرض عليّ أحد منهم مواساة ، فكرهت أن يخبروا أهلنا بإكرامهم وازدراء الملك بي ، فأجمعت قتلهم ، ونزلنا محلاً فعصبت رأسي ، فعرضوا علي الخمر فقلت : رأسي تصدع ، ولكن أسقيكم ، فسقيتهم وأكثرت لهم بغير مزج حتى همدوا ، فوثبت عليهم فقتلتهم جميعاً ، وأخذت كل ما معهم ، وقدمت على النبي ﷺ في مسجده ، فسلَّمت عليه ، وقلت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقال ﷺ : « الحمد لله الذي هداك للإسلام يا مغيرة » ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : مِنْ مصر قدمت ؟ قلت : نعم ، قال : فما فعل المالكيون الذين كانوا معك ؟ قال المغيرة : كان بيني وبينهم ما يكون بين العرب وقتلتهم ، وجئت بأسلابهم ليخمسها النبي ﷺ ، أو يرى فيها رأيه . فقال ﷺ : « أما إسلامك فقبلته ، ولا آخذ من أموالهم شيئاً ولا أُخمسه فإنه غدر ، والغدر لا خير فيه » ، فقلت يا رسول الله : إنما قتلتهم وأنا على دين قومي ثم أسلمت ؟ فقال ﷺ : « الإسلام يَجُبُّ[1] ما قبله » .

---

(١) المراد هنا يمحي ويغفر ويسامح بما فُعِل قبل إسلام المرء .

وبلغ ذلك ثقيفاً فتداعوا للقتال ، واصطلحوا على أن يحمل عمي عروة ثلاث عشرة ديَّة[1] .

وقطع ﷺ لجاجة عروة ، وأنهى الجدال ، لما أخبر عروة أنه ما جاء لحرب . فعاد عروة إلى قريش بعد أن رأى ما يصنع به أصحابه من الإجلال والإكرام ، والتعظيم والإكبار والتقدير والاحترام والتأدُّب في حضرته ﷺ . إذا تكلم أحدهم عنده خفض صوته ، ولا يحدُّون النظرْ إليه ، لا يتوضّأ إلا ابتدروا وضوءه يتبركون به ، ولا يسقط من شعره إلا أخذوه . فكان في فعلهم ذلك ردّ لما ظنه عروة من فرارهم ، فكأنهم قالوا بلسان الحال : من نحبه هذه المحبة ، ونعظّمه هذا التعظيم ، كيف يُظن بنا أن نفر عنه ، ونسلمه لعدوه ، بل هم أشد تعلُّقاً وتمسُّكاً به وبدينه ونصره من هذه القبائل التي تنصر بعضها لمجرد الرحم .

وخير وصف ينطبق على المسلمين الذين رآهم عروة ، وسينقل صورتهم إلى قريش ، قول أحد الأعراب يصف قوماً : « هم ليوثُ غاباتٍ ، وغُيُوثُ جَدَباتٍ[2] ، ما في عهودهم خَوَرٌ[3] ، ولا في صفوفهم

---

(١) ما أوردناه رواية السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٧ .

(٢) الجَدْبُ : المحل نقيض الخِصْب ، لسان العرب : جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٣) الخَوَرُ : الضعف ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٢٦٢ .

كَـدَرٌ[1] ، ولا في خـدودهم صُغرٌ[2] ، ولا في عيـونهم خَـزَرٌ[3] ، ولا في صدورهم وَغَرٌ[4] ، ولا في حديثهم زَوَرٌ[5] ، ولا في قولهم خَلْفٌ[6] » .

قـال عروة بن مسعـود : يـا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكـه ، والله مـا رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحـابـه ، ولقـد رأيت قومـاً لا يُسْلِمُونَـه لشيء أبداً ، فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم فإني لكم ناصح ؛ مع أني أخاف أن لا تُنْصَروا عليه ، وهذا دليل على جودة عقلـه وتفطُّنه لما كان عليه الصحابة من المبـالغـة في تعظيمـه وتوقيره ومراعـاة أُموره[7] .

---

(١) الكَدَر : نقيض الصفاء ، خلاف الصَّفْو . لسان العرب : جـ ٥ ص ١٣٤ .

(٢) الصَّغَر : ضـد الكبر ، والصَّغَـار : الـذل والضَّيم ، وكـذلـك الصُّغْر ، لسـان العرب : جـ ٤ ص ٤٥٨ .

(٣) الخَزَر : كسرُ العين بَصَرَها خِلْقة ، وقيل هو ضيق العين وصغرها ، وقيل هـو حَـوَلُ إحـدى العينين ، لسان العرب : جـ ٤ ص ٢٣٦ .

(٤) الوَغْر : شدّة توقد الحرّ ، واحتراق الغيظ ، لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٨٦ .

(٥) زَوَر : عوج ، ازورَّ عن الشيء ازوراراً أي عدل عنه وانحرف ، مختار الصحاح : ٢٧٨ .

(٦) الخَلْفُ : الرَّديء من القول ، يقال : سكت ألفاً ونطق خَلْفاً ، مختار الصحاح : ١٨٥ .

(٧) السيرة الحلبيـة : جـ ٣ ص ١٨ ، السيرة النبـويـة والآثـار المحمـدية : جـ ٢ ص ٢٠٥ ، عيـون الأثر : جـ ٢ ص ١١٧ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٢٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٧٤ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣١٧ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠١ .

فقالت قريش : لا تتكلّم بهذا يا أبـا يعفور ـ يعني عروة ـ ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل[1] .

ودعا ﷺ خِرَاش بن أُمية الخزاعي فبعثه إلى قريش ، وحمله ﷺ على بعير لـه يقـال لـه « الثعلب » ، ليبلّغ أشرافهم عنـه مـا جـاء لـه ، فعقروا بـه جمل رسول الله ﷺ ، عقره عكرمـة بن أبي جهـل ، وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش فخلّوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ وأخبره بمـا لقي .

ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه ليبلّغ عنه أشراف قريش ما جـاء لـه ، فقـال عمر : يـا رسول الله إني أخـاف قريشاً على نفسي ، وما بمكة من بني عدي بن كعب أحـد يمنعني ، وقـد

---

(١) ثم انصرف عروة إلى الطائف مع قومه ، أسلم عام الفتح ، فعاد إلى قومه يـدعوهم إلى الإسلام ، فرموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقال رجل : ما ترى في ذلك ؟ فقال عروة : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة سـاقهـا الله إليّ ، فليس فيَّ إلا مـا في الشهـداء الـذين قُتِلُوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ قبل أن يرحل عنكم ، فادفنوني معهم ، فدفنوه معهم ، وفيه قال ﷺ : « إن مثله في قومه كمثل صاحب يس » ، وعروة هو الذي شبهـه ﷺ بعيسى بن مريم عليه السلام .

قـال قتـادة في قـولـه تعـالى : ﴿ لـو نُـزِّل هـذا القُرْآنُ على رَجُـلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] ، قالها الوليد بن المغيرة المخزومي : لو كان مـا يقول محمـد حقـاً أُنزل القرآن عليَّ أو على عروة بن مسعـود الثقفي ، والقريتـان : مكـة والطـائف . أُسـد الغـابـة : جـ ٣ ص ٣٢ .

عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلظتي عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني ، عثمان بن عفان فإن بني عمه يمنعونه .

موقف عمر هذا ، هل فيه جُبْنٌ وتخل عن المسؤولية ؟

ما عُرِف عن عمر جبن قط ، ولا تخل عن المسؤولية أبداً ، فهو المسلم الوحيد تحدّى قريشاً وهاجر علناً ، وكانت في عمر حدّة وشدّة على قريش تعلمها ، وهي أيضاً شديدة الحقد عليه لمواقفه منها منذ بداية إسلامه في مكة مروراً ببدر ورأيه في أسراها وانتهاء برأيه منذ بداية العمرة أن يحمل المسلمون السلاح لقتال قريش ، ولذلك خشي أن تكون هذه المواقف سبباً في إخفاقه بالمهمة الكبيرة والخطيرة التي أوكلها الرسول ﷺ إليه ، فلو قام في مكة أحد الحاقدين الناقمين باغتياله ، ولا سيما أنه لا مجير له فيها ، فإن خسارة الإسلام فيه كبيرة ، إضافة إلى الموقف الحرج الذي سيجد المسلمون أنفسهم أمامه ، وما جاؤوا من أجله ، فاختار عثمان وهو المعروف بحكمته ومرونته ، فضلاً عن وجود من يجيره في مكة ، مما جعل احتمال نجاح المهمة أكثر ، مع تلافي المواقف الحرجة التي كان المسلمون في غنى عنها ، وهذا ما كان .

ودعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فبعثه إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ، ومعظّماً لحرمته .

وأمر ﷺ عثمان أن يـأتي رجـالاً بمكـة ونسـاءً مسلمـات ويـدخـل عليهم ويبشِّر بـالفتـح ويخبرهم أن الله وشيـك ـ قريب ـ يظهر دينــه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .



مسجد الرضوان في الحديبية ، وهو في مكان الشجرة التي تمت تحتها البيعة

بيعة الرضوان

☆ ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾

[الفتح : ١٨]

سِفَارة عثمان بن عفان رضي الله عنه :

ودخل عثمان رضي الله عنه مكّة ، مع عشرة من المسلمين استأذنوا رسول الله ﷺ ليزوروا أهاليهم . ولقي أَبان بن سعيد بن العاص[١] عثمانَ فأجاره حتى يبلِّغ رسالة رسول الله ﷺ ، وجعله بين يديه ، فجاء عظماء قريش ، فبلَّغهم عثمان عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ، وهم يردّون عليه : إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً .

ولما فرغ عثمان من تبليغ رسالة رسول الله ﷺ قالوا له : إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُف . فقال رضي الله عنه : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ .

وقال بعض المسلمين : قد خلص عثمان إلى البيت فطاف به دوننا . فقال ﷺ : « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » .

---

(١) أسلم قبل غزوة خيبر .

قالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه ؟ قال ﷺ : « ذلك ظني به ، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف ، لو مكث سنة ما طاف به حتى أطوف[1] » .

وكانت قريش قد احتبست عثمان عندها ثلاثة أيَّام ، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان رضي الله عنه قد قُتِل ، وقتل معه العشرة رجال الذين دخلوا معه مكة ، فقال ﷺ عند بلوغه ذلك : « لا نبرح حتى نناجز[2] القوم » ، ودعا ﷺ الناس إلى البيعة .

بيعة الرضوان :

لقد احتجزت قريش عثمان رضي الله عنه في مكة ثلاثة أيام ، وبلغ المسلمين أنه قُتِل ، والقوانين الدولية ـ قديمها وحديثها ـ جعلت للمفاوضين « حصانة فلا يجوز الاعتداء عليه ، أو على الأشخاص المرافقين له ، ولا حجزهم كأسرى حرب ، إلا أنه يحق للفريق الآخر إذا رأى أن الظرف غير مناسب للتفاوض بسبب احتدام المعركة مثلاً أن يشير إليه بالعودة ، وأن يتخذ كل الاحتياطات اللازمة لعدم إطلاق النار عليه أو إيذائه »[3] .

---

(١) ولما رجع عثمان قالوا له في ذلك : هل طفت بالبيت ؟ فقال رضي الله عنه : بئسما ظننتم بي ، دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت ، والذي نفسي بيده لو مكثت بها معتمراً سنة ، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله ﷺ .

(٢) أي لا نغادر الحديبية حتى نقاتل قريشاً .

(٣) الحرب في القانون الدولي العام ، ص ١٢٨ .

تبـدَّل المـوقف ، وتبـدَّلت الحـال ، فـلا بُـدَّ من معـاجلـة أُخرى للموقف بعد أن أظهر ﷺ رغبة صادقة في حقن الدمـاء ، أيـدهـا القول والعمل ، مع الحجة والبرهان ، فلم تبادله قريش مـا أراد ، فلا بُـدَّ إذن من مقـابلـة القوة بـالقوة ، وبعـد أن رفضت كل طرح للموادعـة وحقن الدماء .

قـال سلمـة بن الأكوع : بينمـا نحن جلـوس قـائِلُـون[1] ، إذ نـادى منادي رسول الله ﷺ - وهو عمر بن الخطاب - : أيها النـاس ، البيعـة البيعـة[2] ، فسرنـا إلى رسـول الله ﷺ وهـو تحت شجرة فبـايعنـاه ، وبايعـه النـاس على عـدم الفرار ، وأنـه إمـا الفتح وإمـا الشهـادة ، ولم يتخلَّف منا أحد إلا الجد بن قيس ، قال ابن الأكوع : لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته يستتر بها من الناس .

والجـد بن قيس منـافـق من المنـافقين ، كان سيـد بني سَلِمـة في الجاهلية ، ولمـا سـألهم ﷺ من سيـدهم قـالوا : الجـد بن قيس على بخل فيـه ، قـال ﷺ : « وأي داء أدوأ من البخـل ؟ بـل سيـدكم عمرو بن الجمـوح ، وفي روايـة سيـدكم بشر بن البراء بن معرور ، ويرجِّـح الرأي الأول قول شاعر الأنصار رضي الله عنهم :

وقـال رسـول الله والحـق قـولـه ... لمن قـال منـا من تسمـوه سيـدا

---

(١) من القيلولة : النوم عند الظهيرة ، مختار الصحاح : ٥٥٩ .

(٢) وفي السيرة الحلبية : أنه نزل جبريل عليه السلام أمر بالبيعة ، جـ ٣ ص ١٨ .

فقالوا لـه جـد بن قيس على التي | نبخلـه فيهـا وإن كان أسـودا
فتى مـا يخطى خطـوة لـدنيئـة | ولا مـدَّ يـومـاً إلى سـواه يـدا
فسـوَّد عمرو بن الجمـوح لجـوده | وحق لعمرو بـالنـدى أن يسودا
إذا جـاءه السؤال أنهب مـالـه | وقـال خـذوه إنـه عـائـد غـدا
ولو كنت يـاجـد بن قيس على التي | على مثلهـا عمرو لكنت المسوَّدا[1]

وبايع ﷺ عن عثمان فوضع يـده على يـده ، وضع يـده اليمنى على يـده اليسرى وقـال : « اللهم إن هـذه عن عثمان ، فـإنـه في حـاجتـك وحاجة رسولك ، فأنا أُبايع عنه »[2] ، فضرب بيمينه شماله ، وهذا يـدل على علم رسول الله ﷺ بعدم صحة القول بـأن عثمان قـد قُتِل . كما بـايع عثمان بعد مجيئه من مكة .

امتحان الصدق والالتزام :

كيف أمر جبريل بالبيعة وعثمان لم يُقتل ؟

ولماذا البيعة ورسول الله ﷺ يبايع عن عثمان ، وما بـايع عنـه إلا لأنه علم بعدم صحة القول بأن عثمان قد قُتل ؟

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ١٩ .

(٢) السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٢٥ ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٣٤ ، ابن هشـام : جـ ٣ ص ٢٠٢ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣١٩ .

البيعة امتحان للمسلمين ، ومحك لصدق إيمانهم . فالنبي ﷺ علم بعدم صحة القول بأن عثمان قد قُتل ، فمن باب أوْلى معرفة الوحي بذلك ، بل ما عرف ﷺ بعدم مقتل عثمان إلا من الوحي . ولكن مثل موقف البيعة موقف يزيد من ارتباط المسلمين ، ومن تماسكهم ، ومن التفافهم حول نبيّهم ، وخاصة وأنهم قادمون إلى موقف لن يفهموا أبعاده مباشرة ، ولن يستشفوا أهدافه فوراً .

فالبيعة امتحان الصدق والإيمان من جهة ، ومن جهة ثانية ستملأ البيعة قلوب القرشيين رعباً وفزعاً ، فهي اليقين بأنهم لن يفروا من حول نبيّهم ، فالبيعة على عدم الفرار ، وأنه إما الفتح أو الشهادة ، فزلزلت قريش ، وسعت في الصلح .

لقد علمت قريش أن الصحابة تزاحموا حتى تَدَكُّوا ووطئوا أمتاعهم ، مع أنهم لم يكن عليهم الدروع لتقيهم ضربات السيوف ليبايعوا على الموت ، فهزّت البيعة قريشاً وأعادت لها رشدها وبصرها ، فأعادت حساباتها بتعقّل ، فهؤلاء بايعوا على الموت ، وأقدموا على الشهادة بجرأة ، فبدا لها أن الصلح خير لحفظ ماء الوجه .

ومبايعة رسول الله ﷺ عن عثمان ، تكريم لعثمان ، وجزاء له ، لأنه كان في ذروة الأدب والإخلاص عندما دعي إلى الطواف فلم يطف في البيت العتيق ، ما دام رسول الله ﷺ لم يطف به بعد .

وفي عدم طواف عثمان رضي الله عنه ـ على الرغم ما في الروح من أشواق للبيت العتيق ـ موقف التزام وإخلاص ومحبّة لرسول الله ﷺ ، فرأت قريش نموذجاً من الرجال الذين حول رسول الله ﷺ ، رأت المحبة والإخلاص والأدب في شخص عثمان رضي الله عنه ، ففكرت جدياً بحل يرضي رسول الله ، ويحفظ لها ماء الوجه أمام حلفائها ، وأمام القبائل العربية كلها .

قال ابن حجر في موقف عثمان هذا :

وأبى أن يطوف بالبيت إذ لم ... يدنُ منه إلى النبي فناءُ
فجزته عنها ببيعة رضوا ... ن يد من نبيّه بيضاءُ
أدب عنده تضاعفت الأعمـ ... ـال بالتَّرْكِ حبذا الأدباءُ[1]

وبعثت قريش إلى ابن أُبيّ بن سلول إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل[2] ، فقال له ابنه عبد الله ـ وهو أدرى بنفاق أبيه ومواقفه ـ : يا أبتِ أُذكرك الله أن لا تفضحنا في كل موطن ، تطوف ولم يطف رسول الله ؟! فأبى حينئذ وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ . فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك ، أثنى عليه .

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٠ .

(٢) وفي دعوة قريش لابن أُبيّ بن سلول هذه ، تأكيد لروابط المنافقين والمشركين ، وشعورهم وأهدافهم المشتركة ضد المسلمين ، ويكفي قريش رجوع ابن أُبي مع ثلاثمئة منافق مثله قبيل أُحُد ، مع ما يبثه وأتباعه من شائعات في صفوف المسلمين .

وكانت البيعة تحت شجرة من أشجار السمر ، وقيل لها بيعة الرضوان ، لأنه ﷺ قال : « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة »[1] ، وكانوا ألفاً وأربعمئة .

لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة بيعة مؤمن صادق ، بيعة لسان وقلب ، بيعة يد وبيعة روح ، لا بيعة منافق كعبد الله بن أبي بن سلول ، وهذا يذكرنا بقزمان ، الذي قاتل في أحد بإخلاص فأبدع ، ولكن قاتل عن أحساب قومه عصبيَّة وعشائرية ، فهو ليس من الصحابة مع أنه شهد أُحداً ، وقال عنه ﷺ : « إنه في النار » ، فمات منتحراً .

وأول من بايع رسول الله ﷺ سنان بن أبي سنان الأسدي[2] ، قال لرسول الله ﷺ : أُبايعك على ما في نفسك ، وقال ﷺ : « وما في نفسي ؟ » ، قال : أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهرك الله أو أُقتل . فصار الناس يقولون له ﷺ : نبايعك على ما بايعك عليه سنان .

وبايع سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، مع أوَّل الناس ، ووسط الناس ، وآخرهم ، ويقول له رسول الله ﷺ : قم فبايع ، ويقول

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٠ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٢٨ .
(٢) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٣٨ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٧٢ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢١٠ ، وفي طبقات ابن سعد : أول من بايع ابن الأكوع .

سلمة : قد بايعت ، فيقول له رسول الله ﷺ : وأيضاً . ذلك ليكون له في ذلك فضيلة ، كما أراد رسول الله ﷺ أن يؤكد بيعته لعلمه بشجاعته وتفانيه في خدمة الإسلام ، ولشهرته في الثبات ، وليست غزوة ذي قَرَد عنا ببعيد .

وبايع عبد الله بن عمر مرتين .

☆ ☆ ☆

الصَّدُّ عَنِ البيتِ الحَرَام :

وتمر خلال هذه الأحداث قافلة فيها عدد من المشركين يريدون العمرة ، فقال بعض المسلمين لَمَّا صُدَّ رسول الله ﷺ عن البيت : نَصُدُّ هؤلاء كما صدنا أصحابهم . فهؤلاء المشركون ليسوا قوة تقف على الحياد بين المسلمين والمشركين ، إنهم قوة رافدة لقريش زعيمة الوثنية في جزيرة العرب ، يشكلون دعماً بشرياً لها في حروبها[1]

ومع ذلك .. تعظيماً للبيت الحرام ، ولما في العمرة من احترام للبيت العتيق ، أنزل الله عز وجل : ﴿ يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا

---

(١) راجع بحث « واجبات الدول المحايدة » في كتاب الحرب في القانون الدولي العام للعميد بشير مراد ، طبعة ١٩٧٣ ، ص ٢١٩ وما بعد ، ومما جاء ص ٢٢٣ : « يبدأ حياد الدولة المحايدة ،التزامها بواجبات الحياد منذ تاريخ علمها بقيام الحرب وإفصاحها عن رغبتها بالوقوف على الحياد » .

شَعَائِرَ اللهِ وَلا الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلاَ القَلائِـدَ وَلا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً .. ﴾[1] .

☆ ☆ ☆

قائد الحرس :

محمّد بن مسلمة

وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه على حرس رسول الله ﷺ ، فبعثت قريش أربعين أو خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص[2] ، الذي بعثته قريش في سفارتها الثانية لرسول الله ﷺ يسأله فيما جاء ، وقال ﷺ في حقّه : هذا رجل غادر فاجر . لقد أرسلت قريش هذه الكتيبة ليطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليلاً رجاء أن يصيبوا منهم أحداً ، ويجدوا منهم غرّة وغفلة ، فأخذهم محمد بن مسلمة[3] إلا مكرز

---

(١) سورة المائدة : ٢ .

(٢) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢١ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٦٧ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٣١ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١١٧ .

(٣) محمد بن مسلمة الأوْسي الأنصاري شخصية رائعة في تاريخنا العربي الإسلامي ، شهد بدراً وأُحُداً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا تبوك ، وهو أحد الذين قتلوا كعب بن الأشرف ، واستخلفه رسول الله في بعض غزواته . ثم صار صاحب العمال أيام عمر رضي الله عنه ، وكان عمر إذا شكِي إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، وهو الذي أرسله عمر إلى عماله ليأخذ شطر أموالهم لثقته به ، اعتزل الفتنة بعد مقتل عثمان ، واتخذ سيفاً من خشب وقال : بذلك أمرني رسول الله . أسد الغابة : جـ ٥ ص ١١٢ .

فإنه أُفلت ، وصدق قول رسول الله ﷺ أنه رجل فاجر غادر .

وأتى بهؤلاء الأسرى إلى رسول الله ﷺ فحبسوا ، وبلغ قريش أسر أصحابها ، فجاء جمع منها حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة ، فقتل من المسلمين ابن زنيم ، رمي بسهم ، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً أيضاً . وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ جمعاً منهم سهيل بن عمرو ، وقالت له : ائت محمداً وصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العربُ أنه دخلها عنوة أبداً .

وطلب قريش للصلح كان نتيجة لعدة عوامل ، منها : بيعة الرضوان ، وأسر رجالاتها أولاً وثانياً ، مع ما نصح به عروة بن مسعود ، وسيد الأحابيشِ الحليس بن علقمة ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَو قَاتَلَكُمُ الَّذينَ كَفَرُوا لَوَلَّوا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً ولا نَصِيراً ، سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَت مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَهُوَ الّذي كَفَّ أَيديَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيْراً ﴾[1] .

ولما رأى رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو ، قال لأصحابه : « سُهَيْلَ أَمْرُكُم » ، « سَهل الله لكم من أمركم ، القوم ماتُّون إليكم

---

(1) سورة الفتح : ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ .

بأرحامكم ، وسائلوكم الصلح ، فابعثوا الهَدْيَ وأظهروا التلبية ، لعل ذلك يُلَيِّنُ قلوبهم » ، فلبُّوا من نواحي العسكر حتى ارتجَّت الأرض بصوت تلبيتهم .

ومن الملاحظ ، أن أبا سفيان لم يرد له ذكر في أحداث الحديبية ، لقد كان غائباً في بعض تجاراته ، والأرجح في اليمن ، لتعطل طريق تجارة قريش إلى الشام .





المفاوضات

بعد نظر رسول الله ﷺ
وعناد سهيل

☆ رسول الله ﷺ : « لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورة لَهِي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس » ثم قرأ ﷺ : ﴿ إنّا فتَحنا لكَ فتْحاً مُبيناً ﴾ .

أرسلت قريش سهيل بن عمرو رئيساً لوفدها المفاوض ، والذي ضم أيضاً مكرز بن حفص ، وحويطب بن عبد العزى ، وكان الخط العام في قريش : أن يرجع رسول الله ﷺ ومن معه هذا العام ، ويعود من قابل فيقيم ثلاثاً ، معه سلاح الراكب ، السيوف في القرب .

ولقد كانت تعليمات قريش إلى رئيس وفدها جليَّة واضحة : ائت محمداً وصالحه ، ولا يكن في صلحه إلاّ أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تتحدث العربُ أنه دخلها عنوة أبداً ، فالرؤيا واضحة في فكر ونفس سهيل بن عمرو ، وهي أوضح في فكر ونفس رسول الله ﷺ .

وأقبل سهيل على رسول الله ﷺ فقال ﷺ : « أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل » .

سهيل بن عمرو : يا محمد ، إن الذي كان من حبس أصحابك ـ

عثمان والعشرة رجال ـ ، وما كان من قتال من قاتلك ، لم يكن من رأي ذوي رأينا ، بل كنا كارهين له حين بلغنا ، ولم نعلم به ، وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أَسرتَ أولاً وثانياً .

وهنا يلمس في كلام سهيل المدخل اللطيف ، ففيه لين وتودُّد ، حتى وتراجع ، وغاية سهيل :

١ ـ تحقيق الهدف الذي جاء من أجله ، ألا وهو الصلح ، وإبعاد الحرب ، مع خوف سهيل ألا يوافق رسول الله ﷺ ، فالموقف الحربي لصالحه ، بعد أَسْرِ من أَسَرَ في المرة الأُولى والثانية ، وبعد بيعة الرضوان .

٢ ـ وأراد سهيل إطلاق سراح الأسرى القرشيين ، وهم ورقة رابحة جداً بيد المسلمين .

وأمام مطلب سهيل قال ﷺ : « إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي » ، فقال سهيل : نفعل ، فبعث إلى قريش بذلك ، فبعثوا بمن كان عندهم ، عثمان والعشرة رجال ، فأطلق ﷺ أسرى قريش ، ولم يسلبهم ، بل مَنَّ وعفا وصفح ، فمن دخل مكة من المسلمين ، لا يؤسر ولا يحتجز ، لأنهم وفد مفاوضات ، وترفض الأعراف الدولية ، وتأبى القوانين قديمها وحديثها ذلك ، بينما أسرى قريش أُسِروا في حالة حرب هي بدأتها في المرة الأولى والثانية .

الموقف لصالح المسلمين

مع حفظ ماء الوجه للقرشيين :

وجثا سهيل على ركبتيه بين يدي رسول الله ﷺ ، والمسلمون حوله جلوس ، وتكلّم وأطال[1] . وكان عباد بن بشر رضي الله عنه ، يقول لعروة : اخفض صوتك عند رسول الله[2] .

رسول الله ﷺ : خلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به .

سهيل بن عمرو : والله لا تتحدَّث العرب بنا أنا أُخذنا ضُغطة[3] ، ولكن ذلك من العام القابل .

لقد امتاز رسول الله ﷺ ببعد النظر ، ودقَّة التقدير . وسنرى أنه ﷺ كان يهمه من المسألة جوهرها ولُبَابها ، فلم يحفل بالقشور والشكليات ، فقدم التسهيلات لسهيل ليضمن الموقف فيما بعد الحديبية ، ولن يعير أُذناً لحماسة المسلمين ـ وخاصة عمر رضي الله عنه ـ ، لأنه ﷺ أدرى بما يخطِّط ويهيئ له ، وأثبتت الأيام بعد نظر رسول الله ، ودقة تقديراته .

ولما التأم الأمر على الصلح ، ولم يبق إلا الكتاب بذلك ، أصر

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٨ / ب ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١١٩ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٢ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠٢ .

(٢) السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) ضُغطة : (بالضم) ، أي بالشدة والإكراه .

سهيل على أن يكتب العقد كما يراه ويتصوّره ، لا كما يراه رسول الله ، فتساهل ﷺ ليحقّق هدفاً مرسوماً واضحاً في ذهنه ، فهو - ﷺ - السياسي الحاذق ، والمحنك البارع ، مع النظر بنور الله عز وجل .

عند ذلك وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر رضي الله عنهما وقال : يا أبا بكر ، أليس هو برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى ، عمر : أولسنا بالمسلمين ؟ أبو بكر : بلى ، عمر : أوليسوا بالمشركين ؟ أبو بكر : بلى ، عمر : فعلام نعطي الدَّنِيَّة[1] في ديننا ؟ ويجيبه أبو بكر : يا عمر ، اِلزم غرزه[2] ، إنَّه رسول الله ، وليس يعصي ربَّه ، وهو ناصره ، استمسك بغرزه حتى تموت ، فإني أَشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

ثم أَتى عمر رسول الله ﷺ فقال له مثل ما قال لأبي بكر ، فقال له رسول الله ﷺ : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أُخالف أمره ولن يضيعني » .

كتابة الصلح :

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يكتب[3] ، فقال اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل بن

---

(١) الدنيَّة : النقيصة والخصلة المذمومة .

(٢) أي الزم ركبه ومسيرته ، والغرز : ركاب من جلد توضع فيه الرجل ، والمراد : اتبع أمره ولا تخالفه .

(٣) أمر ﷺ أوس بن خولة أن يكتب ، فقال سهيل : لا يكتب إلا ابن عمك علي أو عثمان بن عفان .

عمرو : لا أعرف هذا ، أي : الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب : باسمك اللّهم ، فكتبها ، لأن قريشاً كانت تقولها[1] ، فضج المسلمون ، وهذا هو التعديل الأول لسهيل بن عمرو .

ثم قال ﷺ : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » ، فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أُقاتلك ، ولم أصدك عن البيت ، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك ، لو علمت أنك رسول الله ما خالفتك ولتبعتك ، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله ، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه : امحه ، امح رسول الله ، فقال علي رضي الله عنه : ما أنا بالذي أَمْحُوه ، والله لا أمحوك أبداً ، فقال ﷺ : أرنيه ، فأراه إياه ، فمحاه رسول الله ﷺ بيده الشريفة[2] ، وقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » ، وهذا هو التعديل الثاني لسهيل بن عمرو .

وقال عندها ﷺ : « أنا والله رسول الله وإن كذبتموني[3] ، وأنا محمد بن عبد الله ، فجعل علي يتلكّأ ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد مقهور[4] » .

---

(١) « باسمك اللّهم » ، أول من كتبها أُمية بن أبي الصلت ، ومنه تعلموها .

(٢) صحيح مسلم : جـ ٣ ص ١٤١٠ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٣٣ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٧٥ .

(٤) إشارة لما وقع بين علي ومعاوية في صفّين ، وقعت بينهما المصالحة على ترك القتال إلى رأس =

وذكر أن أُسيد بن حضير ، وسعد بن عبادة رضي الله عنهما أخذا بيد علي رضي الله عنه منعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله و إلا فالسيف بيننا وبينهم ، وضج المسلمون ، وارتفعت الأصوات ، وجعلوا يقولون : لِمَ نُعْطِ هذه الدنيَّة في ديننا ؟ فجعل رسول الله ﷺ يخفضهم و يومئ بيده إليهم أن اسكتوا .

ثم اتفق على وضع الحرب عن الناس عشر سنين تأمن فيه الناس ، و يكف بعضهم عن بعض . على أنه من أتى محمداً من قريش ممن هو على دين محمد بغير إذن وليه رُدَّ إليه ذكراً كان أو أنثى[1] ، ومن أتى قريشاً ممن كان مع محمد مرتداً ذكراً كان أو أنثى لم ترده إليه .

وشرطوا أنه من أَحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . وأن بيننا

= الحول ، فلما كتب الكاتب في الصلح هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب معاوية بن أبي سفيان ، قال عمرو بن العاص : اكتب اسمه واسم أبيه ، وأرسل معاوية لعمرو لا تكتب أن علياً أمير المؤمنين ، لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين ما قاتلته ، فبئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم أقاتله ، ولكن اكتب علي بن أبي طالب وامح أمير المؤمنين ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، لا تمح اسم إمارة المؤمنين ، فإنك إن محوتها لا تعود إليك ، فلما سمع علي رضي الله عنه ذلك أمر بمحوها ، وقال : امحها ، وتذكر قول رسول الله ﷺ يوم الحديبية .

(١) قال السهيلي : وفي رد المسلم إلى مكة عمارة للبيت وزيادة خير له في الصلاة بالمسجد الحرام والطواف بالبيت فكان هذا من تعظيم حرمات الله ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٤ .

وبينكم عَيْبَة مَكْفوفة[1] ، « صدوراً منطوية على ما فيها ، لا تبدي عداوة » ، وقيل صدوراً نقيَّة من الغل والخداع ، منطوية على الوفاء بالصلح ، وأنه لا إسلال ولا إغلال[2] .

وقال سهيل : وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكة ، وإنه إذا كان عام قابل ، خرج منها قريش فتدخلها بأصحابك فأقمت بها ثلاثة أيام معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب والقوس لا تدخلها بغيرها[3] .

جاء في الطبقات الكبرى : على أن يدخلها من قابل فيقيم بها ثلاثة أيام ، ولا يدخلها إلا بِجُلُبَّان[4] السلاح ، السيف والقوس ونحوه[5] .

وكتب رسول الله ﷺ في أسفل الكتاب : « ولنا عليكم مثل الذي لكم علينا » .

---

(١) الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٣٦ ، الطبري : جـ ٢ ص ٣٢١ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) الإسلال : السرقة والخلسة ونحوها ، والإغلال : الخيانة . راجع العبارة وتفسيراتها في : عيون الأثر : جـ ٢ ص ١١٩ و ١٢٧ ، الوفا بأحوال المصطفى : جـ ٢ ص ٦٩٨ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ٩٧ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٣٥ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢١٦ .

(٣) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٤ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠٣ .

(٤) الجُلُبَّان : القربان وما فيه السيف والقوس .

(٥) ابن سعد : جـ ٢ ص ١٠١ .

كتب الكتاب علي رضي الله عنه ، ونسخ مثله محمد بن مسلمة رضي الله عنه لسهيل بن عمرو ، لأن سهيلاً قال : يكون هذا الكتاب عندي ، وقال رسول الله ﷺ : « بل عندي » ، فأخذه رسول الله ﷺ ، ثم كتب محمد بن مسلمة نسخة لسهيل[1] .

أترضى بهذا ؟ !

وعند كتابة بنود الصلح ، اشترط سهيل بن عمرو أن يرد رسول الله ﷺ إلى قريش من جاءه مسلماً بغير إذن وليه ، ولا ترد قريش إلى المسلمين من ارتد وجاءها من عند رسول الله ﷺ ، وهذا هو التعديل الثالث الذي أملاه سهيل وقبل به رسول الله ﷺ ، وهنا قال المسلمون : سبحان الله ، كيف نرد للمشركين من جاء مسلماً ؟ وعسر عليهم شرط ذلك .

وكان ممن قال ذلك عمر بن الخطاب وأُسيد بن حضير وسعد بن عبادة ، وسهل بن حنيف رضي الله عنهم .

قال عمر : أترضى بهذا ؟ فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال : « نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً ، ومن أعرض عنا ، وذهب إليهم فلسنا منه في

---

(١) جاء في الوفا بأحوال المصطفى : جـ ٢ ص ٦٩٩ : « كتاب الصلح عند رسول الله ﷺ ، ونُسْخته عند سهيل بن عمرو » .

شيء وليس منا ، بل هو أَوْلى بهم[1] » .

اِمتحان الوفاء

فبَينا رسول الله ﷺ وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب بالشروط المذكورة ، إذ جاء أبو جندل « العاصي بن سهيل بن عمرو » إلى المسلمين يَرْسُف في الحديد[2] قد أفلت إلى أن جاء رسول الله ﷺ ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فجعل المسلمون يرحبون به ، ويهنئونه ، فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل ، قام إليه فضرب وجهه بغصن من شجرة به شوك ضرباً شديداً ، حتى رقَّ عليه المسلمون وبكوا ، وأخذ سهيل بتلابيب[3] أبي جندل وقال : يا محمد هذا أول ما أُقاضيك عليه ، أن تردَّه إلي ، لقد لجت[4] القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا .

قال ﷺ : صدقت ، فجعل سهيل يجر ابنه أبا جندل ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني عن ديني ؟ ألا ترون ما لقيت[5] ؟ . فزاد ذلك

---

(١) ولنا تعليقنا على بنود الصلح ومواقف المسلمين . لا سيا عمر ـ بعد صفحات .

(٢) يمشي في قيوده .

(٣) تلابيب ، اللَّبَّةُ : وسط الصدر والمنحر ، والمراد أخذ بجمع ثيابه عند صدره ، لسان العرب : جـ ١ ص ٧٣٣ .

(٤) أي تمت القضية ووجبت .

(٥) لقد عذب عذاباً شديداً على أن يرجع عن الإسلام .

الناس إلى ما بهم . فإنهم كانوا لا يشكُّون في دخولهم مكة وطوافهم بالبيت ، للرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ ، فلما رأوا الصلح وما تساهل عليه رسول الله ﷺ ، دخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، وخاصة من اشتراط أن يرد إلى المشركين من جاء مسلماً منهم .

وَرُدَّ أبو جندل إلى قريش بعد ضربه من قبل أبيه سهيل بن عمرو ، فقال ﷺ: « اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله أن لا نغدر بهم[1] » .

ومما قاله ﷺ لسهيل : « إنا لم نقض الكتاب بعد » .

فقال سهيل : بلى ، لقد لجت القضيَّة بيني وبينك .

فقال رسول الله ﷺ : « فأجره لي » .

فقال سهيل : ما أنا مجير ذلك لك .

رسول الله ﷺ : « بلى ، فافعل » .

سهيل : ما أنا بفاعل .

فقال مكرز وحويطب : قد أجرناه لك ، وقالا لسهيل : لا تعذِّبه . وقال حويطب لمكرز : ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٥ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٢٢ .

دخل معهم من أصحاب محمد ، أما إني أقول لك ، لا تأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة ، فقال مكرز : وأنا أرى ذلك .

وعندما تقرر رد أبي جندل وثب عمر رضي الله عنه إلى جنب أبي جندل ، وأبوه سهيل بجنبه يدفعه ، وصار عمر يقول لأبي جندل : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم الكافر عند الله كدم الكلب ، ويدني قائم السيف منه ، ويقول له : يا أبا جندل ، إن الرجل يقتل أباه في الله ، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله[1] ، فقال أبو جندل : مالك لا تقتله أنت ؟ فقال عمر : نهانا رسول الله ﷺ عن قتله ، فقال أبو جندل : ما أنت أحق بطاعة رسول الله ﷺ مني ، قال عمر : وددت أن يأخذ السيف فيضرب أباه ، فضن الرجل بأبيه[2] .

ودخل أبو جندل إلى مكة في جوار مكرز بن حفص وحويطب ، فأدخلاه مكاناً وكفّ عنه أبوه[3] .

☆ ☆ ☆

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠٤ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٣٩ ، الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٩ / ١ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٢٠ .

(٢) وموقف عمر هذا سببه أن سهيلاً أراد أن يفتن أبا جندل عن دينه ويرده إلى الكفر .

(٣) اسم أبي جندل العاصي أو العاص ، وأخوه عبد الله بن سهيل بن عمرو إسلامه سابق على إسلام أبي جندل ، لأن عبد الله شهد بدراً ، خرج مع المشركين إلى بدر ثم انحاز من المشركين إلى رسول الله ﷺ ، وشهد معه بدراً والمشاهد كلها ، وأبو جندل أول مشاهده الفتح .

القَبَائِلُ تُحَدِّدُ مَوَاقِفَهَا « ويسري على المتحالفين ما يسري على المتعاقدين[1] » :

ولما انتهى تحرير الصلح ، دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ . وثبوا إليه وقالوا : نحن ندخل في عهد محمد وعقده ، ونحن على من وراءنا من قومنا . ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم .

قال حويطب لسهيل : بادانا أخوالك - يعني خزاعة - بالعداوة وكانوا يستترون منا ، فدخلوا في عهد محمد وعقده ، فقال له سهيل : ما هم إلا كغيرهم ، هؤلاء أقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمد واختاروا لأنفسهم أمراً ، فما نصنع بهم ؟ فقال حويطب : نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر ، فقال سهيل : إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر ، فإنهم أهل شؤم فيسبوا خزاعة فيغضب محمد لحلفائه ، فينقض العهد بيننا وبينه .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح أشهد عليه رجالاً من المسلمين ، هم : أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة ، ورجالاً من قريش : حويطب ومكرز ، وقام إلى هَدْيِهِ وفيه جمل لأبي جهل ، وكان نجيباً مهرياً ، في رأسه حلقة من فضة ، غنمه ﷺ يوم بدر[2] .

---

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠٣ ، ابن سعد « الطبقات الكبرى » : جـ ٢ ص ٩٨ .

(٢) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٦ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٢١ .

ونفر هذا الجمل ودخل مكـة ، وانتهى إلى دار أبي سفيـان ، وخرج في أثره عمرو بن غنمـة الأنصـاري ، فـأبى سفهـاء مكـة أن يردُّوه ، حتى أمرهم سهيل بن عمرو بشرائه ، فدفعوا فيه عدة ثياب ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا أنا سميناه في الهـدي فعلنـا » . وبـأمر من سهيل بن عمرو عرضوا مئة من الإبل ، قال سهيل : فـإن قبلهـا فـأمسكوا هـذا الجمل ، وإلا فلا تتعرضوا له ، فأبى ﷺ وقال : « لو لم يكن هـذا الجمل للهـدي لقبلت المائة[1] » .

☆ ☆ ☆

مَشُورَةُ أُمّ سَلَمَة الفاضِلَة العاقلة :

ولما فرغ رسـول الله ﷺ من كتـابـة الصلـح أمر المسلمين بـالنحر والحلق[2] ، قال ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم منهم أَحَدٌ[3] ، فدخل رسول الله ﷺ على أُمِّ سلمة رضي الله عنها وهو شـديـد الغضب ، فـاضطجع . فقالت : ما لك يا رسول الله ؟ قـالت ذلـك مراراً وهو لا يجيبهـا ، ثم ذكر لها ما لقي من النـاس ، وقـال لهـا : « هلـك المسلمون ، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا » . وفي روايـة : « عجبـاً يـا أُم سلمـة ، ألا

(1) الطبري : جـ ٢ ص ٦٣٨ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(2) الطبري : جـ ٢ ص ٦٣٧ ، ابن خلـدون : جـ ٢ ص ٣٥ ، السيرة النبـويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٣٥ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٧ .

(3) وهذه مخالفة جماعية ، وعصيان في الجيش كله لنا حديث حوله بعد صفحات .

ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه ! قلت لهم احلقوا وانحروا وحلُّوا مراراً فلم يجبني أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي » .

فقالت أم سلمة : يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، ورجوعهم بغير فتح ، وأشارت رضي الله عنها أن يخرج ولا يكلِّم أحداً منهم ، وينحر بُدْنه ويحلق رأسه . وهذا يدل على فضل أُم سلمة ووافر عقلها ، وقيمة مشاورة المرأة الفاضلة العاقلة .

وخرج رسول الله ﷺ ، فأخذ حربة وقصد هَدْيَهُ وأهوى بالحربة إلى البُدْن رافعاً صوته : بسم الله الله أكبر[1] . ثم دعا خراش بن أُمية الخزاعي[2] فحلق رأسه الشريف ، ورمى شعره على شجرة ، فأخذه الناس ، وأخذت أُم عمارة رضي الله عنها طاقات منه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا ، وقصَّر بعضهم ، فدعا ﷺ للمحلقين ثلاثاً ، وللمقصِّرين مرة واحدة ، فقال : « يرحم الله المحلقين ، اللّهم ارحم

---

(١) جاء في السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٧ : وفرّق ﷺ لحم الهَدْي على الفقراء الذين حضروا الحديبية ، وبعث إلى مكة عشرين بَدَنَة مع ناجية حتى نُحرت بالمروة ، وقسّموا لحمها على فقراء مكة ، وجاء ذلك أيضاً في السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٢) الروض الأنف : ج ٤ ص ٣٧ ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٢١ ، ابن خلدون : ج ٢ص ٣٥ ، الطبري : ج ٢ ص٦٣٧ .

المحلقين ، اللّهم اغفر للمحلقين » ، قالوا : والمقصرين ؟ فقال ﷺ : « يرحم الله المحلقين والمقصّرين »[(١)] . وأرسل الله عز وجل ريحاً عاصفة احتملت شعورهم فألقتها في الحرم[(٢)] .

☆ ☆ ☆

نزول سُورة الفتح

أقام ﷺ والمسلمون بالحديبية بضعة عشر يوماً ، وقيل عشرين يوماً[(٢)] ، ثم انصرفوا قافلين إلى المدينة ، وكان عمر بن الخطاب يسير مع رسول الله ﷺ ليلاً . فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أُمُّك يا عمر ، نَزَرت[(٣)] رسولَ الله ﷺ ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك .

قال عمر : فحركتُ بعيري ثم تقدمت أمامَ المسلمين وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن ، فما نَشِبْتُ[(٤)] أن سمعت صارخاً يصرخ بي ، قال :

---

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠٤ و ٢٠٥ ، الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٨ / ١ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٢٣ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ٩٨ و ١٠٣ و ١٠٤ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٣٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٦٩ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ٩٨ .

(٣) النزر : الإلحاح في السؤال ، لسان العرب : جـ ٥ ص ٢٠٣ .

(٤) نشب الشيء في الشيء نشباً ونُشوباً ونُشْبةً : لم يَنْفُذْ ، ونَشِبَ : عَلِقَ ، لسان العرب : جـ ١ ص ٧٥٦ ، والمعنى هنا : فما لبثت .

فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل فيّ قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلّمت عليه ، فقال : « لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة لَهي أحبُّ إليّ مما طلعت عليه الشمس » ، ثم قرأ : ﴿ إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً ﴾[1] ، ومن آياتها :

﴿ إنَّ الَّذينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم ، فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤتيهِ أَجْراً عَظيماً ﴾ ، [الفتح : ١٠] .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْ الْمُؤْمنينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما في قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ ، [الفتح : ١٨] .

﴿ وَهُوَ الَّذي كَفَّ أَيْديَهُمْ عَنْكُمْ وَأيديَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أن أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَان اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصيراً ، هُمُ الَّذينَ كَفَروا وَصَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَالهَدْيَ مَعْكُوفاً[2] أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَولا رِجَالٌ مؤمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَموهُمْ أَنْ تَطَؤوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَعَرَّةٌ[3] بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدخِلَ اللهُ في رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزيَّلُوا لَعَذَّبنا الَّذين

---

(١) نزلت سورة الفتح بكراع الغَمِيم ـ سبق تعريفها ، وهي وادٍ أمام عُسْفان ـ وهي تسع وعشرون آية .

(٢) معكوفاً : رأي مجاهد وعطاء : محبوساً ، قال الفراء : يقال عكفته ، أعكفه عكفاً : إذا حبسته ، لسان العرب : جـ ٩ ص ٢٥٥ .

(٣) المعرّة : الأذى ، لسان العرب : جـ ٥ ص ١٨١ .

كَفَرُوا مِنْهُم عَذَاباً أَليماً ، إِذْ جَعَلَ الَّـذينَ كَفَروا في قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّـةَ حَمِيَّـةَ الجاهِلِيَّةِ فَـأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَـهُ عَلَى رَسُولِـهِ وَعَلى المُؤمنينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَـةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَهَا وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيماً ، لَقَدْ صَـدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِـدَ الْحَرَامَ إِن شَـاءَ اللهُ آمِنينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِـكَ فَتْحاً قَرِيباً ، هُوَ الَّـذِي أَرْسَلَ رَسُولَـهُ بِـالْهُـدى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّين كُلِّهِ وَكَفى باللهِ شَهِيداً ﴾ ، [الفتح : ٢٤ ـ ٢٨] .

☆ ☆ ☆

معجزتان :

☆ وفي طريق العـودة أصـاب المسلمين جهـد ومشقّـة من الجـوع ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يجمعوا بقايـا أزوادهم ، ويبسطوا أنطـاعهم[1] وعباءهم ففعلوا ، ثم قال ﷺ : « من كان عنـده بقيـة من زاد أو طعـام فلينثره » ، ودعا ﷺ ثم قال : « قربوا أوعيتكم » . فأخـذوا وأكلوا حتى شبعوا ، وبقي كثير .

وفي صحيح مسلم : خرجنـا مع رسول الله ﷺ في غزوة فـأخـذنـا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرنا[2] ، فأمر رسول الله ﷺ فجمعنـا من أزوادنـا فبسطنـا لـه نطعـاً ، فـاجتمـع زاد القـوم على النطـع فكان

(١) النَّطْعَ والنَّطَعَ والنِّطْعُ والنِّطَعَ : قطعة من الأدَمِ « الجلد » لسان العرب : جـ ٨ ص ٣٥٧ .

(٢) الظَّهر ضد البطن ، والمراد هنا الركائب .

كربضة العنز[1] ، وكنا أربع عشرة مئة ، فأكلنا حتى شبعنا ، ثم حشونا جربنا[2] ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال : « أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، والله لا يلقى الله عبد مؤمن بهما إلا حجب من النار »[3] .

☆ وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أصابنا عطش فأُتي رسول الله ﷺ بماء في تَوْر ، فوضع يده فيه ، فجعل الماءُ يخرج من بين أصابعه كأنها العيون ، قال : فشربنا ووسعنا وكفانا . قيل له : كم كنتم ؟ فقال : لو كنا مئة ألف لكفانا[4] .

قال ابن سعد في طبقاته الكبرى في حديثه عن صلح الحديبية : نبع الماء من بين أصابعه كأنه عيون[5] .

وهاتان المعجزتان ـ وغيرهما كثير ـ حقيقة لا يقترب منها شك ، لأنها وقعتا أمام جيش قوامه ألف وأربعمئة رجل ، فلو لم تكونا ـ وفي الجيش عدد من المنافقين ـ وتحدث بها المسلمون ، لاستغل المنافقون

---

(1) كقدر العنز وهي رابضة أي باركة ، رُبُوض الغنم والبقر والفَرَس والكلب ، مثل بُروك الإبل وجُثُوم الطير ، مختار الصحاح : ٢٢٩ .

(2) الجراب يُجْمَع على أَجْرِبة وجُرُب .

(3) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٠ / ١ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٨ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ٢ ص ٩٨ .

(5) الطبقات الكبرى لابن سعد : جـ ١ ص ١٨٣ .

والمشركون ذلك في دعاواهم ضد المسلمين عامة ، وضد شخص رسول الله ﷺ خاصة ، ولكنهم شاهدوا ذلك بأم أعينهم ، وقالوا كما قال رأسهم ابن أُبيّ بن سلول ، عندما قال له أوس بن خولي رضي الله عنه : ويحك يا أبا الحباب ، ما آن لك ، تبصر ما أنت عليه ، أبعد هذا شيء ؟ فقال ابن أُبيّ بن سلول : إني رأيت مثل هذا ! !

☆ ☆ ☆

رسول الله يحلل الموقف :

ولما نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ ، قال له جبريل عليه السلام : نهنئك يا رسول الله ، وهناه المسلمون . وتكلّم بعض الصحابة وقالوا : ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت ! فقال رسول الله ﷺ لما بلغه ذلك : « بئس الكلام ، بل هو أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرواح عن بلادهم . وسألوكم القضية ، ويربحوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم ، وردكم الله تعالى سالمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح ، أنسيتم يوم أُحُد إذ تصعدون ولا تلوون على أَحَد وأنا أدعوكم في أُخراكم ، أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا[1] ؟ » .

---

(١) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٠ / ١ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٨ ، ابن سعد : جـ ٢ ص ٩٨ ، السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٢٧ .

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله ، فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا .

لقد علم ﷺ أن هذا الصلح سبب لأمن الناس ، وظهور الإسلام ، وأنّ الله يجعل فيه فرجاً للمسلمين ، وهو أعلم بما علّمه ربه[1] . لذلك اطمأنت القلوب عند الأفول من الحديبية ، وتهيّأت لفتح مبين قريب سيكون .

☆ ☆ ☆

عمر يستوضح عن نبوءة !

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ، ألَمْ تقل إنك تدخل مكة آمناً ؟

ويجيب رسول الله ﷺ : « بلى ، أفقلت لكم من عامي هذا ؟ » .

قال عمر ومن حوله من المسلمين : لا .

فقال ﷺ : « فهو كما قال جبريل عليه السلام ، فإنكم تأتونه وتطوفون فيه[2] » .

---

(١) السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٢٩ ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٠ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٣٧ ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي : جـ ٦ ص ٦٨ .

وفي روايـة : فلمـا صَـدُّوا قـالـوا لرسـول الله ﷺ : أين رؤيـاك يـا رسول الله ؟ وهـذا يمثل منتهى الحريـة . فـأنـزل الله عـز وجـل : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِـالحَقِّ لَتَـدْخُلُنَّ المَسْجِـدَ الحَرَامَ إِنْ شَـاءَ اللهُ آمِنينَ مُحَلِّقِينَ رُؤوسَكُمْ وَمُقَصِّرينَ لا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مـا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلكَ فَتْحاً قَريباً ﴾ ، [الفتح : ٢٧] .

☆ ☆ ☆

بين الإيمان والكفر كلمة

وأصـاب المسلمين ليلاً مطر في الحـديبيـة ، لم يبل أسفـل نعـالهم ، فقال ﷺ : « من قال مطرنـا برحمـة الله وفضلـه فهو مؤمن بـالله وكافر بـالكـواكب ، ومن قـال مطرنـا بنجم كـذا وبنـوء كـذا ، فهـو مـؤمن بالكواكب كافر بالله »(١) .





(١) ابن سعـد : جـ ٢ ص ١٠٥ ، البـدايـة والنهـايـة : جـ ٤ ص ١٠٧ ، السيرة الحلبيـة : جـ ٣ ص ٢٩ .

نظرات في صلح الحديبية

وضوح الرؤيا في الابتداء
حقق الهدف في الانتهاء

☆ عمر : عَلامَ نعطي الدنيَّة في ديننا ؟ أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه ، إنّه رسول الله ، وليس يعصي ربَّه ، وهو ناصره ، استمسك بغرزه حتى تموت ، فإني أشهد أنه رسول الله . عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

أ ـ موقف عمر في الحديبية :

« ياعمر ، إني رضيت وتأبى ؟! » :

موقف عمر في الحديبية ، هو موقف كل مسلم شهد الحديبية ، ولم يكن في الجيش أَحَد راضٍ بكل ما جرى ، إلاَّ أن عمر رضي الله عنه كان جريئاً فأفصح عَمَّا في نفسه ، فظاهر الشروط ، وللوهلة الأُولى ، جاءت ضد عزّة المسلمين وثقتهم بأنفسهم ، وإيمانهم الكامل بأن النصر لهم حتماً ، وأنهم لا شك سيدخلون مكة ، ويطوفون بالبيت الحرام .

وموقف الصديق رضي الله عنه ، موقف « إن قالها فقد صدق » ، التسليم الكامل ، والتصديق التام المطلق .

والنقاش الذي جرى « فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا » سببه أن رسول الله ﷺ ما قال إن الذي جرى ، جرى بوحي ، والصحابة كانوا في مواقف كثيرة يقولون : أوحي يا رسول الله ؟ ، كما هي الحال في بدر عندما أبدى الحُبَاب بن المنذر رأيه ، وفي الخندق عندما أراد رسول الله أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة ، فإن كان وحياً سكتوا وقبلوا وسلَّموا تسليماً ، وإن لم يكن وحياً ناقشوا وأبدوا آراءهم ، وفي الحديبية إبداء رأي لعدم وجود وحي إلهي في الموضوع ، والأمر بعد نظر سياسي كبير عظيم من قِبَل رسول الله ﷺ ، عرف نتائجه مسبقاً ، فكانت ظاهر بنود الصلح لصالح قريش - كما ظنَّت - وجوهرها لصالح المسلمين ، ودعم لمسيرتهم ودعوتهم .

ومما أثر في نفوس المسلمين أيضاً أن سهيل بن عمرو ، هو الذي أملى بنود الصلح كما أراد وشاء ، ولم يدع لرسول الله ﷺ فرصة تعديل أو تغيير أو تشاور في إنشاء البنود وصيغتها ، وكان رسول الله ﷺ يقبل النص الذي يمليه سهيل ليضمن كتابة وثيقة رسمية موقَّعة ممهورة ، فيها اعتراف خطي من قريش - زعيمة العرب - بقوة جديدة في الجزيرة العربية ، هي القوة المنافسة التي وقفت قريش والأحزاب في وجهها ، بل أرادت استئصالها قبل زمن ليس بعيداً .

في الحديبية ، جعل رسول الله ﷺ أمام ناظريه هدفاً واضحاً يريد تحقيقه ، ألا وهو إيقاف الحرب ، وحقن الدماء للتفرُّغ للدعوة

وتبليغ الإسلام ، ونشر التوحيد بين القبائل بالحكمة والموعظة الحسنة ، مع الاعتراف الرسمي الخطي من قريش بهذا الحق .

وقد حقق ﷺ ذلك ، ولو جاءت بنود الصلح في ظاهرها كما أملاها سهيل بن عمرو ، ولكن رسول الله ﷺ حقّق من خلال مضمونها ولُبَابها الهدف الذي أراد . فالهدنة مع قريش تفسح له المجال لتحقيق هذا الغرض داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وجاءت الوقائع مؤيدة ، والنتائج محقِّقة صحة وجهة نظره ﷺ .

وأثرها كبير حتى على قريش ذاتها ، لأنه دخل مكة في عمرة القضاء مما جعل أفراداً كُثُراً من قريش يعيدون حساباتهم كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، ولا سيما وأن المسلمين دخلوا مكة مضطبِّعين في طوافهم ، مظهرين زنودهم وجزءاً من صدرهم ، لتعلم قريش أن دعاواها التي أشاعتها بين أبنائها غير صحيحة ، وأن حمّى يثرب لم توهن قواهم ، ولم تضعف أجسامهم ، فهاهم في صحة وبنية سليمة ، وأجسام قوية ، ودحض هذه الفرية ، يعني الشك في افتراءات أُخرى ، جعلت شباب مكة يحكِّمون العقل في الإسلام وبالمسلمين ، ويشكون فيما سمعوا من قريش ، وبما تخطط له .

قال رسول الله ﷺ : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أُخالف أمره ، ولن يضيعني » .

فأنا يا عمر عبد الله ، وهذه صفة أشترك فيها معك ومع المسلمين كافة ، إلا أنّي رسول الله أيضاً ، فرسول الله ﷺ لو قام بصلح أو معاهدة أو أمر فيه إضرار أو إذلال أو ما يسيء إلى المسلمين أو إلى روح الجماعة الإسلامية لأنزل الله وحيه محذِّراً منبِّهاً ، فرسول الله ﷺ مطمئن قلباً وروحاً ، فليس في الأمر إلا عزة المسلمين وخير مستقبلهم ، وهذه طمأنينة تامة كاملة ، لا يشوبها شك في قلب رسول الله ﷺ ، فهو يرى أموراً وأهدافاً غابت عن عمر وعن بقية المسلمين ، إنه يريد ما بعد الحديبية ، وما يحقِّقه هذا الصلح من هدنة وطمأنينة بين المسلمين وقريش ، منها :

١ ـ تطهير الصف الداخلي ، والتفرُّغ إلى اليهود الذين كانوا وراء المؤامرات التي تحاك ضد المسلمين .

٢ ـ والتفرغ لنشر الإسلام بين القبائل في جزيرة العرب .

٣ ـ وتبليغ الدعوة إلى الملوك والأُمراء خارج الجزيرة العربية

٤ ـ وكسر عداوة قريش لينفذ الإسلام إلى قلوب أبنائها في جو من حقن الدماء والهدنة والاعتراف المتبادل .

٥ ـ وأن يشعر العرب جميعاً بنديَّة المسلمين لقريش صاحبة المكانة الرفيعة بين العرب .

☆ ☆ ☆

٢ ـ الحكمة في قبول شروط سهيل :

والحكمة في كونه ﷺ وافق سهيلاً على شروط الصلح عامة ، وشرط ردِّ من جاءه مسلماً إلى قريش خاصة ، المصلحة المترتبة على هذا الصلح .

يقول الإمام النووي : إن المصلحة المترتبة على هذا الصلح هي ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة التي علمها رسول الله ﷺ وخفيت عليهم ، فحمله ذلك على موافقتهم ، ذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ، ولا تظهر عندهم أمور رسول الله ﷺ كما هي ، ولا يجتمعون بمن يُعْلِمُهُم بها مفصَّلة ، فلما حصل الصلح اختلطوا بالمسلمين ، وجاؤوا إلى المدينة ، وجاء المسلمون إلى مكة وخلوا بأهلهم. وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونهم ، وسمعوا منهم أحوال رسول الله ﷺ ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته المتظاهرة ، وحسن سيرته ، وجميل طريقته ، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك ، فمالت أنفسهم إلى الإيمان ، حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة ، وأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة ، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما ، وازداد الآخرون ، أي الذين لم يُسْلِمُوا مَيْلاً إلى الإسلام ، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما قد تمهَّد لهم الميل ، وكانت العرب من غير قريش ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش ، لما يعلمونه فيهم من القوة والرأي ، ولأنهم كانوا يقولون : قوم الرجل أعلم به ، فلما أسلمت

قريش ، أسلمت العرب .. لقد جاءه ﷺ العربُ بعد فتح مكة من أرجاء الجزيرة طائعين ، وكان هذا الصلح هو سبب فتح مكة .

فالله ورسوله أعلم بالحكمة البالغة ، فإن صد المسلمين عن البيت كان في الظاهر هضماً للمسلمين ، وفي الحقيقة عزاً لهم وقوة ، فأذل الله عز وجل المشركين من حيث أرادوا العز لأنفسهم ، وقهرهم من حيث أرادوا الغلبة ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

☆ ☆ ☆

٣ ـ وهل شك عمر بدينه ؟

سؤال عمر وكلامه وموقفه لم يكن شكّاً في الدين ، أو في رسول الله ﷺ ، حاشاه رضي الله عنه ، فلما قال له أبو بكر الصديق الزم غرزه فإنه رسول الله ، قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله .

لقد كان سؤاله طلباً لكشف ما خفي عليه من المصلحة ، وحثاً على إذلال المشركين ، وحباً في ظهور الإسلام كما عرف في خُلُقِه وقوته في نصر الدين ، وإذلال المبطلين ، وفي ذلك دليل على جواز البحث في العلم حتى يظهر المعنى .

وسلَّم عمر تسليماً ، عندما قال له رسول الله ﷺ : « يا عمر ، إني رضيت وتأبى ؟! » .

قال عمر : ما زلت أصوم وأتصدق وأُصلي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون هذا خيراً . فهذا الذي عمله عمر بعد موقفه من صيام وتصدق وصلاة وعتق مخافة كلامه في الحديبية ، إنما عمله لتأخّره وتوقفه عن المبادرة بامتثال الأمر ليس غير .

إن كل الذي أراده عمر ـ وهو المسلم الحق ـ ظهور الحكمة ، وتكشُّف المراد من الصلح وهو بهذه الشروط .

☆ ☆ ☆

٤ ـ هل رفض النحر والحلق مخالفة جماعية ؟

نعم ، إنها مخالفة جماعية ، ولكن فيها أدب واحترام لعدم النطق بها ، ولعدم اللجوء أو القيام بعمل إيجابي ضد تنفيذ الأمر ، ويدل هذا الموقف على أن جميع المسلمين كانوا برأي عمر ، ولكن عمر كان أجرأ القوم على النطق عما جال في النفوس أمام رسول الله ﷺ ، فكانت مشورة المرأة الفاضلة أُمّ المؤمنين أُمّ سلمة رضي الله عنها ، فعاد الجميع إلى التزام أمر رسول الله ﷺ .

والمخالفة لم تكن شكّاً بدينهم وبرسولهم ، بل كانت لرجوعهم بغير فتح ، وهم الذين لم يشكُّوا لحظة منذ انطلاقهم من المدينة بدخول مكة معتمرين .

٥ - وفُتِح بابُ المودّة على مصراعيه :

وبعث رسول الله ﷺ إلى مكة من الحديبية عشرين بَدَنة مع ناجية بن جندب الأسلمي ، حيث نحرها بالمروة ، وقسَّم لحمها على فقراء مكة ، ففتح بذلك باب مودّة ، وكسب شعور الفقراء المكيين .

لقد قطعت العلاقات بين المسلمين وقريش أثناء الحرب ، أما في الهدنة والصلح ، فقد رعى رسول الله ﷺ فقراء قريش وحلفاءها ، ففتح باباً من المودّة معهم . فكسر بذلك الحواجز النفسية التي أوجدتها الزعامة القرشية ، وهيّأ النفوس لقبول الحوار ، وبالتالي اعتناق الإسلام ، والإيمان برسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

☆ ☆ ☆

٦ - حويطب ومكرز يستشفان الأمر :

لقد رأى سيد خزاعة بُدَيل بن ورقاء .
كما رأى سيد الأحابيش الحُلَيس بن علقمة .
كما رأى حويطب ومكرز بن حفص .

وكما رأى عروة بن مسعود الثقفي ما يصنع المسلمون برسول الله ﷺ من الإجلال والتعظيم والإكبار والتقدير والاحترام والتأدُّب في حضرته ، حتى قال عروة لقريش : إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل

محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم ، فإنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم ، فإني لكم ناصح ، مع أني أخاف أن لا تنصروا عليه ، فقالت له قريش : لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور ، ولكن نردّه عامنا هذا ويرجع إلى قابل .

أمام هذا الواقع ، وأثناء وجود مكرز وحويطب ، وبعد أن سمعا ما سمعا ، ورأيا ما رأيا ، قال حويطب : لا تأخذ من محمد نَصَفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة ، فقال مكرز مجيباً : وأنا أرى ذلك .

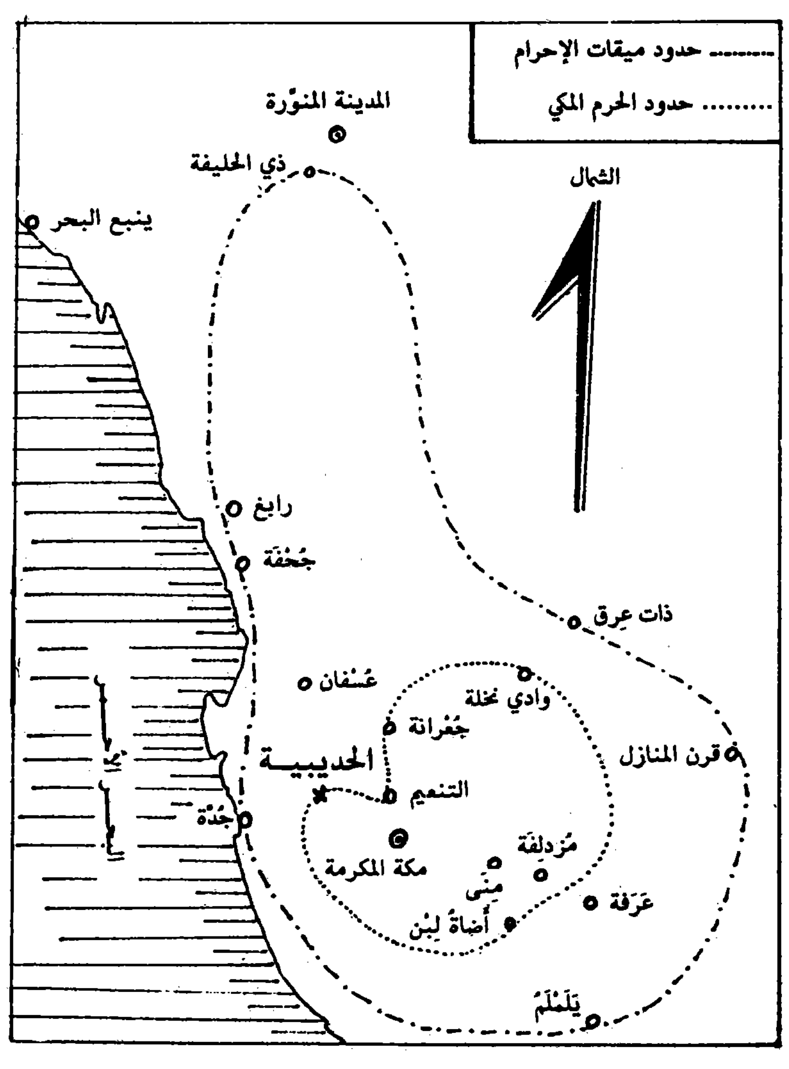
لقد تيقَّنَ وجهاء قريش وأصحاب الرأي فيها منذ الحديبية ، أن زمام الأمر أفلت من بين أيديهم ، وسيدخل المسلمون بقيادة رسول الله ﷺ مكة فاتحين ، ولا قِبَل لهم بهم بعد موقفهم هذا .



٧ ـ قطع الشجرة تأكيد على التوحيد المطلق :

وبلغ عمر بن الخطاب في خلافته أن ناساً يصلُّون عند الشجرة التي تمَّت تحتها بيعة الرضوان ، ويطوفون بها ، فتوعدهم ، ثم خاف من اتساع الأمر والمغالاة في تعظيمها لبركة ما جرى تحتها ، فأمر بقطعها .

لقد كان رضي الله عنه حريصاً على التوحيد المطلق في النفوس ، وألاّ تشوبه شائبة .



موقع الحديبيّة وحدود حرم مكة المكرمة

مابعد الحديبية

☆ « يا أبا بصير ، إنّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فَرَجاً ومَخْرَجاً ، فانطلق إلى قومك » .

رسول الله ﷺ

ولما عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ، هاجرت إليه أُمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت قد أسلمت بمكة ، وبايعت قبل أن يهاجر رسول الله ﷺ[1] .

وقدمت المدينة على أُم سلمة رضي الله عنها ، وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة ، وتخوَّفت أن يردها رسول الله ﷺ ، فلما دخل ﷺ على أُم سلمة أعلمته بها . فرحَّب بها رسول الله ﷺ ، وقالت أُم كلثوم : يا رسول الله ، أنا امرأةٌ وحال النساء إلى الضعف فتردني إلى الكفار يفتنوني عن ديني ، ولا صبر لي ؟

تخصيص عموم لا نسخ عهد :

يقول عروة بن الزبير : إن رسول الله ﷺ كان صالح قريشاً يوم

---

(١) لا يُعرف لأم كلثوم اسم إلا هذه الكنية ، وهي أُخت عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمّه ، خرجت من مكة وحدها ، وصاحبت رجلاً من خزاعة حتى قدمت المدينة .

الحديبية على أن يرد عليهم من جاء بغير إذن وليه ، فلما هاجر النساء إلى رسول الله ﷺ أبى الله أن يرددن إلى المشركين ، إذا هن امتحن بمحنة الإسلام فعرفوا أنهن إنما جئن رغبة في الإسلام ، وأمر برد صدقاتهن إليهم إذا احتبسن عنهم إن هم ردُّوا على المسلمين صداق من حبسوا عنهم من نسائهم[1] .

لقد نزل القرآن الكريم يخصِّص ذلك الصلح بالنسبة للنساء لمن جاءت منهن مُؤْمنةً ، لكن بشرط امتحانهن : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلى الكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُم أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُم وليَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[2]

وكان الامتحان أن تستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشزة ، ولا هاجرت إلاَّ لله ولرسوله ، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا خرجت امرأة حلَّفها بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ولا

---

(١) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢١٠ ، وراجع لما بعد الحديبية ابن سعد : جـ ٨ ص ٢٣٠ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٤٠ ، الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣١ / ١ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣٠ . السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) سورة الممتحنة : ١٠ .

لرجل من المسلمين ، وبالله ما خرجت إلاَّ حُبّاً لله ورسوله ، فإذا حلفت لم تُرَد ، ورُدّ صداقها إلى بعلها .

وجاء المدينة أخوا أُم كلثوم ـ عمارة والوليد ـ في ردِّها ، فقالا : يا محمد أوفِ لنا بما عاهدتنا عليه . ولكن رسول الله ﷺ ردّ صداقها إلى بعلها[1] . فرجع عمارة والوليد إلى مكة ، فأخبرا قريشاً بذلك ، فلم يبعثوا في ذلك أحداً ، ورضوا بأن تحبس النساء[2] .

ومن النساء اللواتي لم يردَّن سبيعة بنت الحارث ، وقدم زوجها مسافر المخزومي طالباً لها ، فلم تُرَد ، وأعطى ﷺ زوجها مسافراً ما أنفق عليها . فتزوجها عمر[3] .



---

(١) والأرجح أن النبي ردّ صداق المهاجرة المتزوجة عموماً ، أما أُم كلثوم فلم يكن لها زوج بمكة ، فلما قدمت المدينة تزوجها زيد بن حارثة .

(٢) ابن سعد : جـ ٨ ص ١٣ .

(٣) كما أنزل عز وجل : ﴿ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الكَوَافِرِ ﴾ [المتحنة : ١٠] ، يعني من غير أهل الكتاب ، فطلّق عمر بن الخطاب مُلَيْكة بنت أبي أمية ، وهي أم عبيد الله بن عمر ، فتزوَّجها معاوية بن أبي سفيان ، وطلَّق عمر أيضاً بنت جرول الخزاعية ، فتزوجها أبو جهم بن حُذَيْفة ، وطلَّق عياض بن غنم الفهري أُمَّ الحكم بنت أبي سفيان بن حرب ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفي .

« أبو بَصير عبيد بن أُسيد بن عتبة الثقفي » :

وجاء إلى رسول الله ﷺ وهو بالمدينة أبو بصير ، وكان ممن حُبِسَ بمكة ، وكتب في ردّه أزهر بن عوف والأخنس بن شريق كتاباً ، وبعثا به رجلاً من بني عامر يقال له : خنيس ، ومعه مولى يهديه الطريق . فقدما على رسول الله ﷺ بالكتاب ، فقرأه أُبي بن كعب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فإذا فيه : قد عرفت ما شرطناك عليه من ردّ من قدم عليك من أصحابنا ، فابعث إلينا بصاحبنا .

فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بصير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » . قال : يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني عن ديني ؟ قال ﷺ : « يا أبا بصير ، انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن حولك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق معهما » .

وصار المسلمون يقولون له : الرجل يكون خيراً من ألف رجل ، يغرونه بالذين معه ، حتى إذا كانوا بذي الحليفة ، جلس أبو بصير إلى جدار ومعه صاحباه ، فسلَّ أحد الرجلين سيفه ثم هزّه ، وقال : لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل ، فقال له أبو بصير : أَوَصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ قال : نعم انظر إليه إن

شئت ، فقال : ناولنيه أنظر إليه ، فناوله ، فلما قبض عليه قتله به ، ثم تناوله بفيه وصاحبه نائم ، فقطع أساره[1] ، فطلب المولى ، فخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد ، فلما رآه رسول الله ﷺ والحصا يطير من تحت قدميه من شدّة عدوه ، وأبو بصير في أثره حتى أزعجه . قال ﷺ : « هذا الرجل قد رأى فزعاً ، قد رأى هذا ذعراً » ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد قال له : « ويحك ما لك ؟ » ، قال : قتل صاحبكم صاحبي ، وأفلت منه ولم أكد وإني لمقتول ، واستغاث برسول الله ﷺ فأمّنه ، فإذا أبو بصير بباب المسجد ، ودخل متوشحاً السيف ، وقال : يا رسول الله وفّت ذمتك ، وأدى الله عنك اسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أُفتن فيه ويفتن بي ، فقال له رسول الله ﷺ : « اذهب حيث شئت » .

فقال أبو بصير : يا رسول الله ، هذا سلب العامري[2] فخمِّسْهُ ، فقال له ﷺ : « إذا خَمَّسْتُهُ رأوني لم أُوفِ لهم بالذي عاهدتُهم عليه ، ولكن شأنك بسلب صاحبك »[3] .

---

(١) أساره : أي كتافه الذي رُبّط به .

(٢) أي الذي قتله ، والسلب هو : رحله وسيفه وما كان معه .

(٣) عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٢٩ ، السيرة الحلبية : جـ ٣ ص ٣١ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٣١ .

الذين أَمْلوا الصلح بعناد

يطالبون بتغيير بنوده :

ثم خرج أبـو بصير حتى نـزل العيص من نـاحيـة ذي المروة على ساحل البحر بطريق عير قريش وتجارتها التي كانوا يمرون عليها إلى الشام . واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة . أي إنهم لما بلغهم خبره رضي الله عنـه ، وأن رسـول الله ﷺ قـال في حقـه : « ويل أمه مِسْعَرُ حرب لو كان معـه رجـال » ، أي لو كان معـه رجـال يتسللون إليه . وفطن أبو بصير من لحن هذا القول أن الله سيرده ، وأنه جاعل له فرجاً ومخرجاً .

وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، وخرج من مكة في سبعين فارساً أسلموا ، فلحقوا بـأبي بصير[1] ، وكرهوا أن يقـدموا على رسول الله ﷺ في تلك المدة التي هي في زمن الصلح والهدنة ، خوف أن يردهم إلى أهليهم ، فلم يزل أصحـابـه يكثرون حتى بلغوا ثلاثمئـة ، وكان أبو بصير كثيراً مـا يقـول وهـو بسيف البحر : الله العلي الأكبر ، من ينصر الله

---

(١) وهنا قُدّم أبو جندل لقيادة الجميع لأنه قرشي . ولأخبار أبي بصير ومن معه راجع : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٠ / ١ ، السيرة النبـويـة لابن كثير : جـ ٣ ص ٣٣٥ ، ابن هشـام : جـ ٣ ص ٢٠٧ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٧٦ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٠ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٣٧ ، الطبري : جـ ٢ ص ٦٣٨ .

فسوف يُنْصَر . ومما قاله أبو جندل بن سهيل وهو مع أبي بصير :

أبلغ قريشاً عن أبي جندل | أنا بذي المروة فالساحلِ
في معشر تخفقُ أيمانهم | بالبيض فيها والقنا الذابلِ
يأبون أن نبقى لهم رفقةً | من بعد إسلامهم الواصلِ
أو يجعل اللهُ لهم مخرجاً | والحق لا يُغْلَبُ بالباطِلِ
فَيَسْلَمَ المَرْءُ بإسلامه | أو يقتل المرء ولم يأتلِ[1]

أرسلت قريش أمام هذا الواقع بكتاب إلى رسول الله ﷺ جاء فيه : إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، ومن جاء منهم إليك فأمسكه في غير حرج ، من أتاه فهو آمن ، فإنا أسقطنا هذا الشرط ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره[2] .

فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه ، ومن معهم من المسلمين[3] يلحقوا ببلادهم وأهليهم ، وألا يتعرّضوا لأحد مرَّ بهم من قريش ولا لعيرهم .

---

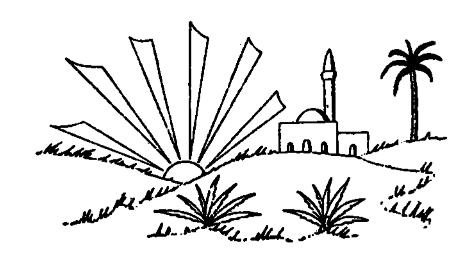
(١) الأبيات في : الاكتفاء : جـ ١ ص ١٣٠ / ب ، عيون الأثر : جـ ٢ ص ١٢٨ ، الروض الأُنف : جـ ٤ ص ٣٩ ، الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٢) يقول كارل بروكلمان في تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٥٦ عن أبي بصير ومن معه : « اجتمعوا تحت قيادته وطفقوا يهاجمون القوافل المكيّة ، فلم يجد المكيون بدأً من أن يطلبوا هم إلى النبي ﷺ أن يلغي تلك المادة الخطرة من المعاهدة ، وأن يتولى أمر هؤلاء العصاة بنفسه » .

(٣) وهم من غِفَار وأَسْلَم وجُهَينة وطوائف من العرب ممن أَسْلَمَ .

فقدم كتاب رسول الله ﷺ عليهما ، وأبو بصير يحتضر ، فمات رضي الله عنه وكتاب رسول الله ﷺ في يده ، يقرؤون ويُسَرُّ به ، فدفنه أبو جندل مكانه . وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ مع ناس من أصحابه ، ورجع باقيهم إلى أهليهم ، وأمنت قريش على عيرها وتجارتها . وعلم الصحابة الذين عسر عليهم رد أبي جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو بأن طاعة رسول الله ﷺ خير مما أحبوه وأن رأيه ﷺ أفضل من رأيهم ، وعلموا بعد ذلك أن مصالحته ﷺ كانت أوْلى لأنها كانت سبباً لكثرة المسلمين ، فإن الكفار لما أمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام ، فأسلم كثير منهم .





نتائج الحديبية

☆ لقد استبان لكل ذي عقل أن محمّداً ليس بساحر ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام ربّ العالمين ، فحق على كل ذي لُبٍّ أن يتّبعه .

« خالد بن الوليد » .

☆ والله ليظهرنّ محمدٌ على قريش ،
عرف هذا الحقّ العربُ والعجم

« عمرو بن العاص » .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربّه ، والعباد يعجلون ، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأُمور ما أراد . لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله ﷺ بُدُنَه ، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ، ودعا الحلاق لحلق رأسه ، فأنظر إلى سهيل بن عمرو كلما يلفظ من شعره ﷺ يضعه على عينه ، وأذكر امتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتَب بسم الله الرحمن الرحيم[1] ، وأن محمداً رسول الله ، فحمدت الله وشكرته الذي هداه للإسلام .

---

(١) مع أنه لا مفسدة في عدم كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ، وعدم كتابة رسول الله ، بل ترتب عليها مصلحة ، وإنما المفسدة لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل .

وقال الزهري[1] في صلح الحديبية : « فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يُكَلَّم أَحَدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر »[2] .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف .

نتائج صلح الحديبية :

☆ صلح الحديبية اعتراف رسمي مُوَقَّعٌ من قريش ، بأن رسول الله ﷺ ومن معه ، قوة مستقلة متميِّزة ، وصنو[3] قريش زعيمة القبائل .

---

(١) محمد بن سعد بن منيع الزهري [١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ / ٧٨٤ ـ ٨٤٥ م] : مؤرخ ثقة من حفاظ الحديث ، ولد في البصرة وسكن بغداد فتوفي فيها ، قال الخطيب في تاريخ بغداد : محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة ، وحديثه يدل على صدقه ، فإنه يتحرّى في كثير من رواياته . أشهر كتبه طبقات الصحابة « يعرف بطبقات ابن سعد » . الأعلام : جـ ٧ ص ٦ .

(٢) الاكتفاء : جـ ١ ص ١٢٩ / ب ، ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠٦ ، البداية والنهاية : جـ ٤ ص ١٧٠ ، الطبري : جـ٣ ص ٧٩ ، السيرة النبوية والآثار المحمدية : جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) الصِّنْوُ : الأخ الشقيق والعم والابن ، وأصل الصِّنو إنما هو في النخل ، والصِّنو : المِثلُ ، والأصل أن تطلع نخلتان من عِرْق واحد . لسان العرب : جـ ١٤ ص ٤٧٠ .

وهذا يعني أيضاً ـ أمام كل قوى جزيرة العرب ـ أن قريشاً قد اعترفت رسمياً بمن كانت تريد استئصاله ، مما جعل القبائل العربية تعيد حساباتها .

☆ وكانت الهدنة التي نصّ عليها صلح الحديبية فرصة المسلمين الذهبيّة ، فاتّصلوا بالقبائل ، واختلطوا بأفرادها ، فشرحوا لهم الإسلام ، وبلّغوا الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالحجة والبرهان ، والعقل والمنطق . . فأسلم في سنتين اثنتين من الصلح ، ما يعادل الذين أسلموا قبلهما .

لقد اختلط المسلمون بغيرهم ، فأعلموهم الإسلام ، قولاً وعملاً ، خُلُقاً وسلوكاً .

وجاء المشركون إلى المدينة المنوَّرة ، وذهب المسلمون إلى مكة المكرَّمة ، وخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يثقون بهم ، وسمعوا منهم أحوال رسول الله ﷺ ومعجزاته الظاهرة ، ودلائل نبوَّته العقلية ، وحسن سيرته ، وجميل طريقته بين أصحابه وبين الناس جميعاً ، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك ، فمالت أنفسهم إلى الإيمان ، فبادر قسم منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة ، فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة ، ومال آخرون إلى الإسلام ، فلما كان يوم الفتح ، أسلموا جميعاً .

وبعد صلح الحديبية ، وبعد هذا الاحتكاك ، أيقن العرب

جميعاً ـ من أسلم ومن لم يُسْلم بعد ـ أن قوة جديدة ، بفكر جديَد ، وتنظيم اجتماعي جديد ، ورابطة جديدة خلَّفت وراءها العصبية القبليَّة ، قد أثبتت وجودها في جزيرة العرب ، يتحتَّم على كل العرب التفكير جدِّياً بها كأمر واقع من ناحية ، وكفكر منطقي سليم من ناحية ثانية .

كأمر واقع : أثبت وجوده ، وبالتالي لقد غيَّر ميزان القوى لصالحه بعد الحديبية .

وكفكر منطقي سليم : سفَّه الأصنام والأوثان والشرك . . وركَّز على التوحيد المطلق لله عز وجل ، خالقاً مبدعاً ، قيومَ السمواتِ والأرض .

☆ ومهَّد صلح الحديبية لاتصال المسلمين ببلاد العرب الجنوبية الغربية ، وجعل ذلك أمراً ميسوراً ، فجاء وفد من قبيلة بني دوس ، من تلك الجبال التي تتاخم بلاد اليمن الشمالية ، وانضموا إلى رسول الله ﷺ في المدينة .

وكانت جماعة من هذه القبيلة ـ بني دوس ـ قبل ظهور الإسلام مزوَّدين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التي كانت منتشرة فيمن حولهم ، وكانوا يرون أن هذا العالم لا بُدَّ له من خالق ، ولو أنهم لم يهتدوا إليه . فلما بُعِثَ محمَّدٌ رسولاً من قبل الله عز وجل ، قدم أحدهم واسمه طفيل بن عمرو إلى مكة ليقف على حقيقة الأمر .

وعلى الرغم من أن قريشاً حذَّرته ما قد يتركه محمد في نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه . وتبع طفيل رسول الله ﷺ إلى بيته بعد أن رآه يصلي في الكعبة ، فشرح له رسول الله ﷺ تعاليم الإسلام ، ففاضت نفس طفيل حماساً لهذا الدين الجديد ، فلما رجع إلى بلده ، أفلح في هدي أبيه وزوجه ، ولكنه وجد قومه غير راغبين في ترك عبادتهم الوثنية القديمة ، فعاد إلى رسول الله ﷺ وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق في دعوته ، وطلب إليه أن يستنزل لعنة الله على بني دوس ، ولكن النبي ﷺ شجَّعه على المثابرة بقوله : « ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » ، ودعا لهم رسول الله ﷺ بقوله : « اللّهم اهدِ دوساً » . وقد بلغ من نجاح طفيل في بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة في السَّنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أُسرة من قومه ، كان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه .

وبعد أن دخل رسول الله ﷺ مكة دخول الظافر ، أشعل طفيل النار في كتلة من الخشب ، وهي الصنم الذي كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين[1] .

☆ إسلام خالد وعمرو وعثمان بن أبي طلحة :

وأدركت قريش بعد صلح الحديبية أن الأمر قد استبان ، وأن

(١) راجع تاريخ الإسلام : جـ ١ ص ١٢٩ و ١٣٠ ، والدعوة إلى الإسلام : ص ٥٧ .

الإسلام ظاهر منتصر لا محالة ، خاصة بعد أن حشدت أضخم جَمْعٍ في تاريخها في غزوة الأحزاب وأخفقت ، وبعد أن تكررت انتصارات المسلمين أيقنت قريش أيضاً أن أمر رسول الله ﷺ قد عَظُمَ في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وأن العاقبة المحتومة ظفر الإسلام وظهوره ، وفتح مكة ذاتها قريباً .

قال خالد بن الوليد لقريش بعد الحديبية : لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر ولا شاعر[1] . وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لُبٍّ أن يتبعه .

وقال عمرو بن العاص : كم أُوضِع[2] ! والله ليظهرنَّ محمدٌ على قريش . . . عرف هذا الحقَّ العربُ والعجم . .

يقول عمرو : ابتعت بعيراً وخرجت أُريد المدينة حتى مررت على مَرِّ الظهران ، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدّة ، فإذا رجلان قد سبقاني بغير كثير يريدان منزلاً ، وأحدهما داخل الخيمة والآخر يمسك الراحلتين ، قال : فنظرت فإذا خالد بن الوليد ، قلت : أين تريد ؟

---

(١) هذا بعد الصبر على : ﴿ أَمْ يَقُولونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنون ؟ ﴾ ، (الطور : ٣٠) ، ﴿ وَيَقُولون أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُون ؟ ﴾ ، (الصّافات : ٣٦) ، ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افتراهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُون ﴾ ، (الأنبياء : ٥) ، ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُنْذِرٌ مِنْهُم ، وَقَالَ الكافِرونَ هذا سَاحِرٌ كَذّابٌ ﴾ ، (ص : ٤) .

(٢) أوضع : أدبر وأحارب .

قال خالد : محمداً ، دخل الناسُ في الإسلام فلم يبقَ أحد به طُعْم[1] ، والله لو أقمتُ لأُخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضَّبع في مغارتها .

عمرو : وأنا والله قد أردت محمداً وأردت الإسلام . فخرج عثمان بن أبي طلحة فرحّب بي ، فنزلنا جميعاً في المنزل .

ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة ، فما أنسى قولَ رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح : يا رَباح يا رَباح يا رَباح ، فتفاءلنا بقوله وسِرْنا ، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول : قد أعطت مكةُ المقادَة بعد هذين ، فظننت أنه يَعْنيني ويعني خالد بن الوليد ، وولّى مدبراً إلى المسجد سريعاً ، فظننت أنه بشّر رسول الله ﷺ بقدومنا ، فكان كما ظننت .

وأَنَخْنا بالحَرَّة ، فلبسنا من صالح ثيابنا ، ثم نودي بالعصر فانطلقنا حتى اطّلَعنا عليه ، وإن لوجهه تَهلُّلاً والمسلمون حوله قد سُرُّوا بإسلامنا .

يقول خالد بن الوليد : فأسرعنا المشي فاطّلعت عليه فما زال يتبسّم إليَّ حتى وقفت عليه ، فسلَّمت عليه بالنبوّة ، فردَّ علي السلام بوجه طَلق ، فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : « تعال » ، ثم قال ﷺ : « الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوتُ ألاَّ يسلمك إلاَّ إلى خير » .

---

(١) الطُعْم : القدرة .

خالد : يا رسول الله ، إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق ، فادع الله أن يغفرها لي ، فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله » .

خالد : يا رسول الله على ذلك[1] . فقال ﷺ : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلَّ ما أَوْضَع فيه من صَدٍّ عن سبيل الله » .

خالد : وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان[2]

☆ وبند الصلح الذي نصَّ على عدم إرجاع قريش من يأتيها من عند محمد ، فيه يقين رسول الله ﷺ وثقته بأصحابه ، فهو - ﷺ - على يقين من حُبِّهم ، ومن إخلاصهم لدينهم ، مع شدة تمسُّكهم بعقيدتهم ، فلن ينضم واحد منهم إلى قريش ، وهذا ما كان .

وتراجعت قريش عن شرطها هذا ، الذي اعتبرته في حينه نصراً لها أَمْلَتْهُ على رسول الله ﷺ ، فإذا به ينافي مصالحها وسمعتها وتجارتها .

☆ وسيتَّجه رسول الله ﷺ بناظريه إلى خارج الجزيرة العربية برسائل إلى الملوك والأمراء ، بعد إنجازه العمل في تنظيم شؤون المدينة الداخلية .

---

(١) أي أبايع - يا رسول الله - على أن يغفر الله لي ما سبق من صدٍّ عن سبيله .

(٢) للتوسُّع راجع السيرة النبوية لابن كثير : جـ ٣ ص ٤٤٦ وحتى ص ٤٥٣ .

ولنا حديثٌ مفصَّلٌ عن هذه الرسائل في « غزوة مُؤْتة » بإذن الله .

☆ وأعاد الصلح فتح طريق القوافل التجارية المارَّة بالمدينة وما حولها ، وظنَّت قريش أن الحصار الاقتصادي المفروض على تجارتها ، والذي عانت منه كثيراً ، قد انتهى ، ولكن أبا بصير ومن معه جعلها في حرج كبير ، مما اضطرها إلى إلغاء البند الخاص بمن يأتي المسلمين مسلماً دون إذن وليه .

وكان الشرط الذي تألَّم له المسلمون غاية التألُّم ، وتمسَّك به المشركون غاية التَّمسُّك فَرَجاً ومخرجاً للمستضعفين ، ونكداً وخسارة على المشركين ، حتى سعوا إلى إلغائه ، وأعلنوا نزولهم عنه ، ولم يكن قد مضى عليه عام بعد !

لقد أثبتت الأيام بعد نظر رسول الله ﷺ وصواب رأيه ، وأنه سياسي عظيم ، ومفاوض بارع ، فقنع الصحابة بأنهم تعجَّلوا حين كرهوا بنود الصلح ، التي كانت يُمْناً وبركة على الإسلام .

☆ ودخل رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين مكة لعمرة القضاء ، وبقوا ثلاثة أيام فيها . محققاً نصراً إعلامياً رائعاً .

لقد أكدت عمرة القضاء تعظيم المسلمين للبيت العتيق كما تعظِّمه العرب ، بل هم أشد تعظيماً له ، وأكبر حرمة عندهم ، وأن مكة لن تفقد

مكانتها ، والتي تحرص قريش على بقائها .

وسنرى عند بحث « عمرة القضاء » في الجزء الخاص بغزوة خَيْبَر أثر هذه العمرة البالغ في مكة ذاتها ، عندما رأت قريش بأُم عينها :

- تضامن المسلمين وترابطهم وتعاونهم وتعاطفهم ، وحسن نظامهم ، واقتداءهم نبيّهم بأرواحهم ، وبالتالي فقدان الأمل في الوقوف في وجه المسلمين ، ولا أمل في التغلُّب عليهم .

- عمرة القضاء قضاء على روح العناد الوثنيَّة ، فالعقلاء من قريش سينضمون إلى الإسلام علناً وسرّاً . قال عكرمة بن أبي جهل لأبي سفيان : لا يحول الحول حتى يتّبعه أهل مكة كلهم .

فعمرة القضاء فتح أوَّلي لقلوب أهل مكة ، وجلاء لأبصارهم .

☆ وعزل صلح الحديبية قريشاً عن حلفائها اليهود الذين سعوا - بكل طاقاتهم وإمكاناتهم - إلى استئصال المسلمين ، فهم الذين ما فتئوا يحرضون قريشاً والقبائل على رسول الله ﷺ ، فلما رأوا أن العرب قد أخفقوا في القضاء على الإسلام ، وأخفقت محاولاتهم في قتل رسول الله ﷺ وتأليب القبائل كُلِّها على المسلمين ، وتحزيب الأحزاب عليهم ، مع خيانتهم لعهودهم ، ونقضهم لمواثيقهم في الساعات الحرجة ، وممالأة الأعداء عليهم ليستأصلوا شأفتهم ويبيدوهم عن آخرهم .

لما رأوا ذلك كُلّه تحزَّبوا أحزاباً أعدّوا العدة للإغارة على المدينة

ليدهموا المسلمين فيها ، وسعى بذلك يهود خيبر إلى بني عمهم في تيماء وفدك ووادي القرى .. ولا غرو فإن في خيبر أشراف بني النضير الذين ساروا إليها بأموالهم ، وآلت إلى يدهم دفة الأُمور فيها .

ولما علم رسول الله ﷺ بتأهُّب اليهود للإغارة على المدينة للقضاء على الإسلام في معقله ، عاجلهم وسار إلى خيبر معقد هذا الحلف وصاحبة الزعامة فيه والرأس المدبرة له ، المهيمنة عليه .

وهذا موضوع : « غزوة خيبر » الجزء القادم من سلسلة « غزوات الرسول الأعظم » إن شاء الله .

☆ ☆ ☆

وملخص القول :

لقد أثمر صلح الحديبية بأسرع مما كان متوقّعاً ، وبأعجب مما كان يتصوَّره إنسان .

أزاح قريشاً ـ العقبة الكأداء في طريق الإسلام منذ ظهوره ـ من طريق الدعوة ، وسيُحَطِّم عنادها وجحودها مما سيجعلها تفكر بحلٍّ يحفظ لها ماء وجهها .

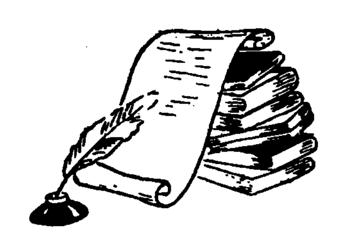
أزاح رسول الله ﷺ من طريقه كل تفكير بقريش ، ليركِّز جهده إلى العدو الشمالي ، إلى يهود خيبر ، فهو العدو الأكبر بعد قريش . فبعد

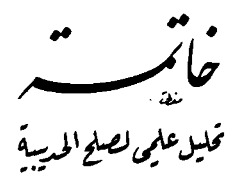
أن أوقف رسول الله ﷺ قريشاً على الحياد في الصلح ، كان لا بدَّ من استثمار الصلح بعد عزلة قريش ، فسار إلى خيبر ، إلى المتربِّصين بالإسلام والمسلمين .

وبعد الصلح مباشرة ، وبعد فتح خيبر خاصة ، أيقنت القبائل العربية والقوى المحيطة بأُمة العرب ، أن قوة جديدة ، بفكر جديد ، ورابطة جديدة ، قد أثبتت وجودها وجدارة في جزيرة العرب ، فيتحتَّم التفكير جدياً بها ، وبميزان القوى الذي مالت كفته تجاه المسلمين .

جاء في دائرة المعارف الإسلامية : « أن محمداً فاز في صلح الحديبية على قريش فوزاً سياسياً باهراً » .







☆ تحليـل « علمي » لصلـح الحديبيـة ؟!! والتحليل العلمي قنـاع لتطـويـع أحـداث التـاريـخ لفكر مسبـق ، ومن يرفض أو ينقض هـذا التحليـل ، لم يستشف القضيـة الجـوهريـة ، يقرأ بشكل تعسُّفي سريـع ، سلفي يتطلّـع إلى وراء ، ينزل إلى أعلى ، ويحـاول صعـوداً إلى أسفل !!

وقبل أن نطوي الصفحات الأخيرة ، نقدّم رأيـاً غريبـاً « لمفكر » معاصر ، يكفي بعـد عرض الرأي نقضـه من قبل القـارئ ، بعـد أن أَلَمَّ بأحداث صلح الحديبية .

نعرض هـذا الرأي لنرى سخـافـات بعض المحلّلين ، وكيف يقلبون المفاهيم بحجّة « التحليل العلمي » ، والعلم منهم براء .

جاء في مقالة عنوانها : « شيء عن اليمين واليسار في بدايـات المجتمع العربي ـ الإسلامي الوسيط »[1] :

[لقـد قـاد المسـارُ التـاريخي للمجتمـع العربي الإسـلامي الجـديـد المعـاركَ اللاحقـة بين المعسكرين الطبقتين الرئيسيتين ، الملأ التجـاري الربوي في مكة من طرف ، والمضطهـدين المسلمين الثـائرين من طرف آخر ، إلى نتائج مريعة بالنسبة لهؤلاء الآخرين ، وخصوصاً بعد معركة الخندق ، بحيث قد نشـأت أوضـاع جـديـدة منـاسبـة لعقـد اتفـاق بين الفريقين ، كان لصالح التجار والمرابين المكّيين ، وقد وجد هذا صيغتـه الحقوقية باتفاق الحديبية ..

إن النشاط السياسي والاجتماعي والفكري الإسلامي ذاك قد تجلّى في النقاط التالية :

١ ـ وضع الحرب بين المسلمين الثائرين والقرشيين التجـار والمرابين عشر سنوات[2] .

٢ ـ من أتى المسلمين ومحمداً من القرشيين الطامحين إلى الانحيـاز إلى صفوف الثـائرين من غير إذن وليـه ردُّوه إليهم ، ولكن من أتى قريشـاً ممن مع المسلمين لم يردوه إليهم .

---

(١) الطليعة العدد ٢٠٢ ، ص ٢٦ و ٢٧ ، الصادر بتاريخ : ٩ / ٥ / ١٩٧٠ . دمشق .

(٢) هنا نورد النصَّ حرفياً كما كتبه صاحبه « المحلل العلمي » الأمين .

٣ ـ من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

٤ ـ إن المسلمين يرجعون إلى المدينة ، وقد كانوا عند الحديبية قرب مكة .

وهكذا كان صلح الحديبية بداية خط جديد في الحركة الإسلامية تميَّز بإعطاء تنازلات لصالح التجار والمرابين في مكة ، وبالتالي بفتح الأبواب العريضة لهؤلاء لدخول الإسلام ، ومحاولتهم تحويله من حركة للفقراء المعدمين إلى حركة للأثرياء ولأعداء التقدُّم الاجتماعي .

إن البند الثاني من الصلح يُظْهِرُ إلى جانب البند الأول هذا الاتجاه الجديد ، ولإعطاء صورة أكثر وضوحاً لهذه القضية ، نسوق هنا نصاً ننقله من كتاب : محاضرات تاريخ الأُمم الإسلامية لمحمد الخضري ، والذي منه أخذنا بنود صلح الحديبية تلك : وبينا الكتاب ـ أي عقد الصلح ـ يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت إلى المسلمين ، فلما رأى سهيل (بن عمرو العامري) المكلَّف من قريش بعقد الصلح مع محمد ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه وقال : يا محمد ، قد لجت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ، قال : صدقت ، وأبو جندل ينادي يا معشر المسلمين أأُردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني ، ولم تكن هناك حيلة ، إلا أن يرد أبا جندل عملاً بوثيقة الصلح] .

أوّلاً : كلمة يمين ويسار اصطلاح تاريخي حديث معاصر ، ظهر للوجود عند انعقاد « المجلس التأسيسي » للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ م ، فكيف يجوز استخدام يمين ويسار على من كانوا قبل ألف وأربعمئة سنة ؟ فإن صَحَّ ذلك ، نكون كمن يحمل عوداً طوله متر ، يريد أن يقيس به قماشاً ليبيعه ، فإذا به وبهذا العود المعوج ، يبيع حطباً وزيتاً ولبناً وأدوية وفاكهة ولحماً !!

ثانياً : ينسى المحللون العلميون عند كتاباتهم الصراع الفكري العميق ، ليعطوا الجانب الاقتصادي الشيء كله ، فهو المحرك للأحداث ليس غير ، وهم بذلك مزاودون أو جاهلون ، إن التفسير الاقتصادي بشكل نجعله يطغى على الجوانب كلها وأسباب سير التاريخ أمر مبالغ فيه ، لم يقله من قال بتفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً مادياً .

يقول الدكتور راشد البراوي في مقدمة كتابه « التفسير الاشتراكي للتاريخ »[1] : أرسل انجلز إلى كونراد سميث في ١٥ آب ١٨٩٠ رسالة مما جاء فيها : « نجد الكثيرين من الناشئين الألمان يكتفي باستخدام العبارة المادية التاريخية ـ وكل شيء يمكن تحويله إلى اصطلاح ـ لكي يجعلوا من معلوماتهم التاريخية القليلة نسبياً نظاماً دقيقاً بأسرع

---

(١) نشر دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٦٨ .

مـا يمكنهم ذلـك ، ثم بعـد هـذا ينظرون إلى أنفسهم نظرة عـاليـة جداً »[١] .

« إن توجيه الكُتَّاب الناشئين الاهتمام إلى الجانب الاقتصادي بأكثر مما يستحق أمر يقع اللوم فيه على عـاتقي وعـاتق مـاركس ، لقـد كان علينـا أن نؤكـد هـذا المبـدأ الرئيس ، لنعـارض خصومنـا الـذين كانوا ينكرونـه ، ولم يكن لـدينـا دائمـاً الـوقت أو المكان أو الفرصـة لنضـع العنـاصر الأُخرى التي تتضمنهـا العـلاقـة المتـداخلـة في مـواضعهـا الحقيقية .. » .

« ولسوء الحظ كثيراً ما يحدث أن الناس يتصوَّرون أنهم قـد فهموا نظرية ما فهماً تاماً ويستطيعون تطبيقها دون كبير عناء ، وذلـك منـذ اللحظـة التي يتمكَّـون فيهـا من الإلمـام دائمـاً لـلإدراك الصحيـح ، ولا أستطيع أن أُعفي من اللوم الكثيرين من الماركسيين الأَحـدث عهـداً ، إذ من هذه الناحية خرجت أشد الأشياء تفاهة وسخفاً »[٢] .

إنَّ مَنْ وضـع التفسير الاقتصـادي للتـاريـخ لم يجعـل النـاحيـة الاقتصاديـة هي الشيء كلـه ـ تمعَّن بـالعبـارتين : بـأكثر ممـا يستحق ،

---

(١) ص : ١٢٧ ، والعبارة التي بين معترضتين من مضمون الرسالة .

(٢) من رسالة انجلز إلى يوسف بلوخ في ٢١ أيلول ١٨٩٠ ، ص ١٣٠ من المرجع السابق .

العناصر الأُخرى ـ ، فلماذا المزاودة ؟ أم إن عملهم هذا من الجهل وعدم هضم المبدأ والإلمام بكل جوانبه ؟ !

ويكفينا هنا ردّاً أن الأمانة العلمية ـ عند المحلل العلمي ـ مفقودة عند نقل النصوص ، فالنصوص مشوَّهة ، حذف منها وأضاف إليها حتى تتلاءم مع معتقده ، وحكمه المقرر مسبقاً .

فالذي يعود إلى عيون المصادر العربية الإسلامية التاريخية ليقرأ ويدرس بنود صلح الحديبية يدهش للتزوير والافتراء الذي ارتكبه صاحب المقالة .

ـ ففي الطبري : جـ ٢ ص ٦٣٤ ، طبعة دار المعارف : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنوات يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض » .

ـ وفي الكامل في التاريخ : جـ ٢ ص ١٣٨ ، المطبعة المنيرية ١٣٤٩ هـ : « هذا ما صالح عليه محمد سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنوات » .

ـ وعند الخضري[1] ـ مرجع مقالة المُحَلِّل ـ : جـ ١ ص ١٢٦ ،

---

(١) مع أن كتاب الخضري « تاريخ الشعوب الإسلامية » مرجع حديث لا يعتمد عليه كغيره من أُمّهات المصادر المعتمدة .

المكتبة التجارية الكبرى : «بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى محمد .. ثم قال : وضع الحرب بين الطرفين عشر سنوات يأمن فيهن الناس فيكف بعضهم عن بعض » .

- وحتى بروكلمان في « تاريخ الشعوب الإسلامية » ، نشر دار العلم للملايين ، ص ٥٦ : « فعقد النبي معه - مع سهيل - صلحاً مدته عشر سنوات » .

ومن الغريب أن بروكلمان وغيره كثيرون من المستشرقين يشهدون بعظمة الصلح الذي جاء واقعياً لصالح المسلمين ، ولكن أصحاب التحليل العلمي يقلبون المفاهيم دوماً ، فلو قالت المصادر إن الصلح جاء لصالح قريش لقالوا : لا ، إنه لصالح المسلمين ، وإلا كيف يتم التحليل العلمي ، إن لم نغير الحقائق ، ونظهر المخالفة لكل ما هو معترف عليه مقرر صحيح . فجعلوا التاريخ ينطق - زوراً - بما ليس فيه ؟

التحليل العلمي « قناع » لتطويع أحداث التاريخ لفكر مسبق .

ومثل هذا التطويع لحده قريب من مهده لمخالفته الواقع ، وعيشه على توهمات وافتراضات وتخمينات .

ينظرون إلى تاريخنا كأنه متَّهم لا بد من إدانته ، فيجب تعقبه في الميادين كلها لهدمه ، وعندهم الهدم أصل والعفو استثناء ، ولم يكن

سبب الهدم قوة حجتهم ، بل سهولة الهدم ليس غير . فالتقيُّد التام بأجواء العصر الذي كُتِب فيه النص ، أمر رئيس ، كيف فهموه ؟ وكيف جاء التطبيق ؟ ولا نحمِّل باسم التحليل العلمي الحادثة ما لم يفهم منها في عصرها ، وأكثر مما أراده منها أصحابها .

والملاحظ . . أن الذي يرد عليهم يُتَّهم بأنه لم يستشف القضية الجوهرية المطروحة ، يقرأ بشكل تعسُّفي سريع ، سلفي يتطلع إلى وراء ، ينزل إلى أعلى ويحاول صعوداً إلى أسفل .

☆ ☆ ☆

وختاماً :

لو جاء الصلح لصالح قريش ، لماذا إذن نقضته بنداً بعد آخر ، وأوقعت بين بكر وخزاعة ؟

الصلح كما يدعي - التحليل العلمي - جاء لمصلحتها ، فيجب والحالة هذه أن تحرص عليه ، وتعمل جاهدة على إبقائه ، وتسعى بكل ما تملك على تثبيت وُجُوده ، مع الالتزام المطلق به ، بل وتجعل تمديده هدفاً ، وإطالة مدته مطلباً ، والحفاظ عليه ألا يخرق مبدأ . كل ذلك للحفاظ على المصالح التي تحققت بعد توقيعه ، فكيف يُقال : جاء الصلح لصالح المرابين القرشيين ، وهم الذين سعوا إلى نقضه وتقويض

بنـــوده ، وهـــو لخيرهم ولصـــالحهم ؟ ! ؟ إلا أن يكـــون العكس هـــو الصحيح والواقع ! ؟

وكما قلنا ، لو قال تاريخنا العربي الإسلامي : إن الصلح جـاء لخير القرشيين ، لقالوا : لا ، إنه لصـالح المسلمين في المـدينـة ، لأنهم يضعون أنفسهم في المكان المعاكس لتاريخنـا دومـاً ، عـداءً وبغيـاً ، وهـذا صلح الحـديبيـة مثلٌ قـدمنـاه ، فيـه الكفـايـة لتكوين فكرة عن تحليـلاتهم العلميـــة ، ورفضهم للروايـــات التقليـــديـــة ، ولنبـــذهم للروايـــات السَّلفية ! ؟ !

كل ذلـــك يثير فينـــا العطف على عقـولهم ، والشفقـــة على فكرهم المطـوَّع والـذي يجعـل الأُمـور معكـوسـة ، لكأنهم يمشـون على أيـــديهم يلهثون ، ويعتبرون النـاس الأسـويـاء على خطـأ ، ويحلفـون بـأنهم هم الأسوياء ، وإن لم يمش الناس الآخرون مثلهم ، فهم على خطـأ واتجـاه سيرهم خاطئ ، وطريقة مشيهم خاطئة معكوسة ! ؟ !





المحتوى

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

☆ ☆ ☆

☆ ☆

☆